

على بحسبي مُعَمَّر

الْإِبَاحِيَّةُ فِي مَوْكِبِ التَّارِيخِ

الحلقة الأولى
نشأة المذهب الإباحي

الناشر:
مكتبة الاستقامة

على بحسنى مُعتمر

الْبِتَاحُ فِي مَوْكِبِ النَّاسِخِ

الحلقة الأولى
نشأة المذهب الإبتاعى

الطبعة الثالثة

جمادى الأولى ١٤٣٣ هـ
فبراير ٢٠١٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والماقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على
الظالمين .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما صليت
ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، في العالمين إنك
حميد مجيد .

مقدمة

فى هذه اللحات القصيرة أردت أن أعرض صفحات عن الإباضية ، أضعتها بين أيدي المثقفين من الأمة ، وليست هذه اللحات شيئاً بعيد للنال ، يحتاج إلى تقصى البحث ، وإطالة التنقيب ، وإنما هى صور يجدها عن كذب كل من خلصت نيته فى طلب الحق ، ودعته العزيمة الصادقة إلى الاطلاع على مصادر الشريعة لأهل هذا المذهب ، ودرس كتب السير والتاريخ المصنفة ، التى تحدثت عنهم ، من موافقيهم ومخالفينهم .

والمذهب الإباضى ليس مذهباً سريعاً ، وليست أصوله التى ينبئ عليها خافية أو مجهولة ، وليس أتباعه ممن يستترون أو يختفون ، فهم لا يقيمون لغير الله وزناً فى هذا الوجود ، ولا ينتظرون عن أعمالهم جزاء من غير الله ، ولا يتبعون فى تصرفاتهم غير الحق .

إنه مذهب ملأ الدنيا حقاً وعدلاً واستقامة ، وخرب المثل الأعلى فى النزاهة والإنصاف فى أدوار من التاريخ ، وسيملاً الدنيا بذلك عندما يأذن الله . ولست أقصد بذلك مثل خرافة الإمامة عند الشيعة ، ولا قصة المهدي المنتظر ، وإنما أقصد أن أقول : إن المذهب الإباضى يستمد قوته من الإسلام ، الذى اختاره الخالق ليكون دين البشرية جمعاء ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لم ينحرف به عن صراط الله السوى غلو ولا تفريط ، ولم تنتشر فيه الخرافة التى يبشأ مشائخ طرق يتصيدون بها الدنيا عن طريق الدين ، ولم يتجمد بتحكم فقهاء على العقول والمدارك فيمنعون الاجتهاد ، ويقصرونه على عصر أو ناس لا يحق لغيرهم أن يصلوا إليه . وتُعطل العلوم والأفهام ، فلا تعطى حق الحرية فى البحث والتنقيب وإعطاء الأحكام .

يدعوى أن الاجتهاد أغلقت أبوابه ، واحتفظ الفقهاء الجامدون بالمفاتيح في خبأ صرى لا يهتدى إليه الباحثون .

قات : إن المذهب الإباضى ، يستمد قوته من الإسلام نفسه ، لأنه يحتفظ بصفاء النبع الذى يصدر منه ، وعندما يثوب المسلمون إلى رشدهم ، ويعودون إلى دين ربهم ، نظيفاً من البدعة ، نظيفاً من الخرافة ، نظيفاً من الغلو ، نظيفاً من الجلود ، ونظيفاً من الأباطيل التى ألصقها جهل الإنسان بدين الله القويم . عند ذلك يجد المسلمون أنفسهم على الإسلام الحق ، الذى ملأ الدنيا رحمة وعدلاً ، واستقامة ونزاهة وحقاً . وعلى ذلك الإسلام الحق لا تزال هذه الطائفة التى سماها التاريخ فرقة الإباضية ، وأصرّ أن يجعل لهم إماماً كما لغيرهم من الفرق أئمة . ولو أن إمامهم الحق الذى لا يهتدون بغير هديه ، ولا يقلدون سواه ، إنما هو محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليس لغيره حق الإمامة إلا بالأسوة الحسنة ، والتبعية للسنة الحميدة القويمة ، والإيمان المطلق بأن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القول والعمل ، هو الهدى الذى أمر الله أمة محمد أن يكونوا عليه . وإذا جرى الإباضية المؤرخين ، وانتسبوا إلى عبد الله بن إباض ، واتخذوا لهم اسماً كما لساائر الفرق أسماء ، فلا يعنى ذلك أنهم يقلدون الرجال ، ويقدسون أقوالهم ، ويتبعونهم اتباعاً أعمى ، ويرفعون أولئك الرجال إلى مراتب الكمال ، التى لا يصلها إلا أنبياء الله المصطفون ، وإنما يحرصون أن لا يأخذوا دينهم إلا على من توفرت لهم فيه الثقة والأمانة فى دين الله : الأمانة فى القول ، والأمانة فى العمل .

والإباضية لا يقدسون الرجال ، ولا يجعلونهم علامة على الحق ، ولا يوجبون تقليد غير المصوم ، ولا يتبعونهم مالم يثبت الدليل الشرعى صواب مسالكهم ، أو يرد النص بأنهم على هدى محمد عليه السلام ، كما شهد الحديث الشريف لعمار رضى الله عنه ، ولبعض الصحابة رضوان الله عليهم .

قال نحر المجتهدين قطب الأئمة ، رحمه الله تعالى في رده على المعقبى : « وان أردت أنهم مهملون لا إمام لهم ، فقد سهوت ، فإن إمامهم النبي صلى الله عليه وسلم »^(١) .

ولن يعظم في نظر الإباضية إلا المؤمن الذي يستمسك بفرض النبي ، عليه السلام ويسلك المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ، ومهما بلغ الرجل من العلم والعمل فإن في مقاله مأخوذاً ومتروكا غير من قال فيه الكتاب الكريم :

« وما ينطق عن الهوى ، إله هو إلا وحي بوحى » . . . « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

بهذه النظرة الواقعية ينظر الإباضية إلى أئمتهم ، فهم بشر غير معصومين ، تحتل أقوالهم وأعمالهم الخطأ والغفلة والنسيان ، ولذلك فما يصح تقليدهم لأفعالهم أو لأقوالهم ، وإنما تؤخذ عنهم تلك الأقوال ، ويقتدى بهاتيك الأفعال ، حين يقيمون على صحتها وصوابها الدليل ، الذي لا يقبل التأويل ، فاتباعهم في قول ليس تقليداً لهم ، ولا اتباعاً لرأيهم ، وإنما هو اتباع لمن يتبعون ، وتقليد لمن به يقتدون ، وبهديه يهتدون ، وإلى حكمه يرجعون .

على يحيى معمر

هـذا الكتاب

عنوان هذا الكتاب: «الإباضية في موكب التاريخ» فهو يعنى أولاً بالشئون التاريخية لهذه الفرقة من فرق المسلمين الكثيرة: المنتشرة في العالم، ويعنى بها ثانياً في مختلف أوطانها، ولم يكن الباعث على وضع هذا الكتاب، غير الكشف عن جوانب مشرقة، من تاريخ الأمة الإسلامية الكبرى، في طائفة من طوائفها المتعددة، وفي ركن من أركان وطنها الفسيح.

وأنا حين كتب عن هذه الفرقة من فرق المسلمين، أو عن غيرها من الفرق، أو حين أتحدث عن بعض الأماكن من هذا الوطن، أو عن غيرها من الأماكن التي يسود فيها الإسلام؛ لا أفصد الدعاية لها، ولا التفتيش من غيرها، لأننى أؤمن أن هذه الطوائف هي جوانب من الأمة، وأن تلك الأماكن هي جهات لوطن الإسلام، ولأننى أؤمن أن في الفرق للأخرى وفي الأماكن الأخرى مثل ما عند هذه الفرقة، ومثل ما في هذه الأماكن من الأجداد. ثم لأننى أؤمن أن في الأمة الإسلامية — وهي تتكون من هذه الفرق — من عباقرة الرجال، وفي الوطن الإسلامي — وهو يتكون من تلك الأماكن — من التربة الخصبة التي تنبت المجد والعظمة، مالا يستطيع قلم أن يحصيه، ولا باحث أن يستقصيه. وإذا قد كتب على الأمة الإسلامية — في كثير من أدوار التاريخ — أن تنقسم إلى طوائف دينية مختلفة بعض الاختلاف، فإننى أستطيع أن أزعم أن تلك الطوائف تنطلق إلى غاية واحدة وإن تعددت بها السبل. كما أستطيع أن أقول: إن لكل منها عباقرة وأعلاماً قدموا للإسلام من جهة، وللبشرية من جهة أخرى، أجل الخدمات. وإذا قد كتب على الوطن الإسلامي أن يتجزأ إلى أوطان صغيرة، تحكمها دول

مختلفة ، فإننى على يقين أن كل وطن من هذه الأوطان الصغيرة . أنجب من الفحول من يعد مفخرة في جبين الإنسانية .

فإذا انجرفت في تيار سياسى منحرف عن نهج الإسلام دول تسيطر على بعض البقاع الإسلامية ، فإن الأمة المسلمة الكبرى ، لم تزل ، ولن تزال تؤدي رسالتها . وإن الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة لا تزال تحافظ على هذه الرسالة في تقديس واعتزاز . وذلك يعنى أن الكفاح في سبيل الحق والخير والسعادة لم يتوقف ، ولن يتوقف مادام على وجه البسيطة مسلمون ، يؤمنون بقيمة التشريع الإلهى لمصلحة البشرية .

إننى أود أن يعلم القارىء الكريم ، أن الباعث على إخراج هذا الكتاب ، وقصر البحث فيه على فرقة واحدة من فرق الإسلام ، والتحدث عن رجال وأماكن معينة — أود أن يعرف القارىء الكريم ، أن الباعث على ذلك لا يرجع إلى عصبية مذهبية ، تضيق بالتفكير المنطلق في دين الله من سائر الفرق ، ولا إلى جمود في حب وطن ضيق ، لا يتسع لبلاد الإسلام . وإنما يرجع إلى أننى درست أصول هذه الفرقة ، وعرفت من تاريخها أكثر مما درست من غيرها وعرفت منه .

ثم إن أقلاماً لم تستقص البحث ، ولم تتعرف الحقيقة ، قد تناولت هذه الفرقة بشيء من الخطأ ، في فهم أصول العقيدة ، والخطأ في فهم البواعث على العمل ، والخطأ في فهم الأسباب التى نتجت عنها أحداث تاريخية . حملت هذه الفرقة أوزارها ، وبرئ منها أولئك الذين تسببوا فيها .

والذى يهمنى في هذا الكتاب ، أن أوضح بعض اللبس الذى نتج عن آثار الأقلام الخاطئة . فإننا في أشد الحاجة إلى أن نزيح عن تاريخ الأمة الإسلامية في مختلف فرقها وطوائفها ذلك الرين الذى رمى بها أقلام مفرضة أو مخطئة ، حتى إذا استقام تاريخ الأمة على حقيقته ، وبرئت الفرق المختلفة مما قيل عنها بسوء نية

أو بحسن نية مما لا يتلاءم مع أصولها وقواعدها ومصادر تاريخها وتشرعها ،
إذا استقام التاريخ على ذلك ، سقط عن الأمة كثير مما دسسته الأيدي العابثة ، والآراء
المخطئة ، والأفلام المفرضة . سواء كان ذلك من كيد خارجي اندس في التراث
الإسلامي ، فأزرتة عقول سطحية . لم تنتبه لما يحمله من عدوان . أو من كيد داخلي
دعثن إليه السنة لم يهذبها النطق بالشهادة ، فتقولت الأفاويل من أجل غرض
دنيوى قريب . أو متاع فيها قليل .

فإذا استقام التاريخ الإسلامى الجيد ، وعرض كل أصحاب فرقة من فرق
الإسلام عقائد تلك الفرقة ، وأحداث تاريخها . ومدى ارتباطها بمصدرها الأول عرضاً
واضحاً صريحاً ، وأزيلت عنها ما ألصقته بها الدعاية المفرضة ، أو الجاهلة . أو المستغفلة ،
وجد جميع أصحاب الفرق في جميع مواطن الإسلام ، أنهم متشابهون كل التشابه ،
فهم منطلقون لتحقيق الرسالة الخالدة التي أنيطت بهم ، في طريق واحدة ، أوفى
طرق متشابهة ، منتهية إلى غاية واحدة .

رجوع إلى محبة الإسلام

لقد اشتط المسلمون في ابتعادهم عن الدين ، فحادوا في عملهم عن سيرة السلف الصالحين ، وأوغلوا في تجافيتهم عن سبيل الله ، فبعدوا عنه .

بعد عنه المتعلمون ، بما زخرفته لهم وثنية الغرب ، ودعت إليه فورة الإلحاد التي تجتاح العالم ، وبثه في الأفكار والعقول قوم لا يؤمنون بدين ، ولا يملكون لمثل ، ولا يقدسون الأخلاق والأعمال التي فرضتها السماء على الأرض .

وبعد عنه البسطاء ، بمادسته الإسرائيلية الماكرة ، وأدخله علماء السوء في الإسلام ، ورضيه الفقهاء المغفلون من خرافة وبدعة ، ظنه الناس من دين الله . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ويبشر بالخير ، أن أقلاما مباركة أخذت على نفسها أن تذود عن الإسلام عدوان أعدائه ، وعدوان أتباعه على السواء :

١ — فأما عدوان أعدائه الذي يشنه الاستعمار والصهيونية بمختلف الأساليب وفي مختلف الجهات ، ففيا يلي :

(♦) العدوان على الخلق الإسلامي ، بتيسير وسائل الانحلال ، ونشر أسباب المنفعة المحرمة ، وتهوين الإثم في ارتكاب ما حرم الله في الأبدان والأعراض والأموال ، وتشجيع القوميات الضيقة ، تهون رابطة الإسلام المتينة ؛ ودعوى حرية الأديان وتساويها ، حتى تصبح الأديان الباطلة ، والوثنية الكافرة ، والإلحاد الذي لا يؤمن بالله ، يطنى على الإسلام في بلد الإسلام ، وحتى تنفصل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض ، خوفا من إغضاب قلة تتبع ملة خاسرة . أو طائفة تحارب الإسلام في عقر داره بعقيدة باطلة .

(♦) والعدوان على الفكر الإسلامي القويم ، بترويج مذاهب اجتماعية

وسياسية ، وضمها أصحابها الأهداف خاصة ، ومراعى مقصودة ، وأغراض دعتهم إليها .
مصلحة شعب أو دولة ، فأصبح أولئك الواضعون يتبنون مقاعد التقديس ، وأصبحت
أقوالهم وآراؤهم تورد للبرهان فى مواضع الاحتجاج ، ويرد بها على أحاديث
المعصومين ، وعلى الكتاب الذى لا بآتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل
من حكيم حميد .

(♦) والعدوان على التشريع الإلـامى ومبادئه الحكيمه ، التى أرسلها خالق
الإنسان لإسماد الإنسان ، بأنواع من التشريع الضيق المحدود ، الذى يضعه البشر ،
وهم فى وضعه غير أمناء .

(♦) والعدوان على العقيدة الإسلامية ، التى تحرر الإنسان من أية عبودية لغير
الله ، وتساوى بنى آدم جميعا فى كرامة البشرية . بخرافة أصل الأنواع ، وقصة الطبيعة ،
وما تزخره أ كاذب أتباع داروين فى قضية التطور .

٢ — وأما عدوان أتباعه ، فبعدم فهمهم لأسراره ، وعدم تمسكهم بحقائقه ،
وبتجاهلهم عن تعاليمه ، وتقاصيهم عن توجيهه ، وبعدم تحكيمهم له ، والرجوع إليه ،
والرضا بحكمه فيما شجر يذنبهم من خلاف .

لقد عملت تلك الأقلام المباركة على نشر الوعى الدينى بين المسلمين ، تكشف
عن الصفحات البيض المشرقات ، التى يجهلها العامة من أتباع الإسلام ، ويخشاها
العارفون ، من أعدائه ، فيتجاهلونها ، وتصدى فى عزم وإصرار وثبات ، لرد الطعنات
التي توجه إلى دين الله ، فى خفايا الدعاية للفرضه ، وبين أستار من العلاج المسموم
لمشاكل الشرق ، ودعوى تحضير بنيه ، وإيصالهم إلى الركب الزاحف ، الذى يسرع
فى الهيمنة على ميادين الحياة .

يسرنى أن أشير إلى تلك الأقلام المسلمة ، التى تستمد حياتها من روح الإسلام ،
لتدفع عنه عدوان المعتدين ، ودسائس المستعمرين ، ومكر الصهاينة والصليبيين ،

ولتكشف تحريف العاشين ، وتحريف الجاهلين ، وعناد الجامدين ، وتجناف المخدوعين ، ولتدعو أبناء أمة محمد إلى الاستمسك بدين محمد ، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

يسرنى أن أشير إلى حملة هذه الأقلام المباركة للمكافحة ، وإلى كل من يجرى في هذا المضمار ، من الذين يحبون كل يوم سنة ، ويميتون كل يوم بدعة ، ويذودون عن الإسلام شبهات أعداء الإسلام .

ولست بذكرى هؤلاء المكافحين في سبيل الله من حملة الأقلام الأحياء أنكر فضل غيرهم ممن جاهدوا لإعلاء كلمة الله ، فإن الجهاد في سبيل الله لا ينكره مؤمن بالله ، ولكن الحصر لا يتأتى في مثل هذا المقام ، فلست أنسى فضل الأستاذ الإمام ، وبعثه للروح الإسلامية في المسلمين ، ولا أثر تلاميذه — تلاميذ الدرس أو تلاميذ الفكرة — الذين حرروا عقول المسلمين من الخرافة والبدعة والجود ، وردوا مطاعن الكائدين من بقايا الحروب الصليبية المتعصبة .

كما لا أنسى فضل الإمام البناء ، الذي نفخ روح العزة والكرامة والكفاح في نفوس الشباب المسلم ، وبذر فيهم روح الفدائية التي يسميها الإباضية مسلك « الشراء » ويعتبرونها مظهراً من كرامة المسلم وعزة الإسلام ، عندما تسيطر دول الطغيان والظلم ، والله العزة ورسوله وللمؤمنين .

إننى لا أنسى فضل هؤلاء ولا فضل غيرهم ، ممن لم أذكره في هذا الفصل القصير ، ولكننى أشرت بالتخصيص إلى أقلام مباركة حية ، لا تزال في ميدان المعركة ، تواصل الكفاح في سبيل الله ضد الطغيان : طغيان العدو الخارجى ، وطغيان العدو الداخلى .

طغيان المال ، الذى نفخ الكبر في أفراد من البشر ، فافتعدوا في زعمهم عروش الآلهة .

وطفيان الفقر الذى نفع الذلة والاستكانة فى قلوب أفراد من البشر ،
فأصبحوا عبيداً لإخوانهم من بنى الإنسان .

طفيان العلم الملحد ، الذى لا يعترف إلا بالمادة ، ولا يؤمن إلا بالتجربة ، ولا يستسلم
إلا لما تلمسه يده ، وهو مع ذلك يحمل أقرب الحقائق إليه ، وأدنى المعارف منه ،
فما يعرف شيئاً عن مجرى الحياة بين يديه ، ولا يفهم سرّاً من أسرار النفس البشرية .
التي يكافح لخدمتها ، ولا يصل إلى أقرب المعلومات عن الروح التي أودعها
الخالق فى الإنسان والحيوان والنبات .

وطفيان الجهل الكافر الذى ينحجب عنه النور ، فلا يستبين الحق فيما
دعت إليه رسالات السماء ، للتخليق بالإنسانية فى ملكوت الله ، ولا يرى الباطل
فيما وسوست به شياطين الأرض من الإخلاد بابن آدم فى وحل الطين ،
وقذارة التراب .

لماذا كتبت هذه الفصول ؟

يحلو لبعض المتعلمين الذين لا يعرفون من حقائق التاريخ ، وبدائه العلم ، وأوائل أصول العقائد ، ما يباعد بينهم وبين العامة ، ويخرجهم من حيز لامية الثقافية . يحول الناس من هؤلاء ، أن يتزبوا بزى العلماء العارفين ، وأن يتحدثوا حديث الباحثين المطلعين ، وأن يستعرضوا أحداث الزمن في الحاضر والماضى ، ليطلقوا عليها أحكاماً قاطعة ، ويدلوا فيها بأراء ثابتة ، دون حاجة إلى حجة أو دليل ، غير أن أحدهم قرأ موضوعاً في مجلة ، أو أن الآخر رأى فقرة تتحدث عن موضوع معين في جريدة سيارة ، أو أنه لمح ذلك في كتاب أو كتابين ، وقد يكون هذا الموضوع الذى لمح صاحبه ، لا يمكن لتحقيق أن يصدر فيه برأى إلا بعد الجهود المضنية ، والأبحاث المستفيضة ، والاطلاع على عشرات المجلدات .

وقد استمعت إلى مناقشة لنفر من هؤلاء الفريق ، تناولوا فيها طوائف المسلمين بالعرض والتحليل . والتخطئة والصواب ، والهداية والإضلال ، وعرضوا فيما عرضوا إلى الإباضية ، فقال بعضهم : هم فرقة من الخوارج ، لأنه قرأ ذلك فى كتاب من كتب التاريخ ، وقال آخرون : بل هم فرقة من المعتزلة ، لأنهم يعتقدون أن القرآن الكريم مخلوق ، وذهب بعضهم إلى أنهم يتفرعون عن الأشاعرة ، لأنه سمع أنهم يؤمنون بالقدر خيره وشره من الله . ولم يهتم واحد من هؤلاء الذين يتطارحون النقاش ، ويتبادلون الآراء ، وينزلون الأحكام على عدد من الفرق الإسلامية ، بالتخطئة أو التصويب . أن يظهر الأسباب التى دعت به إلى إصدار حكمه ، والأدلة التى يستند إليها فى إبداء رأيه ، غير ما قدمه من تعليل (٢ - الإباضية)

ساذج فى بعض البقط لا يقنع عقلا ، ولا يصلح سبباً لوجهة النظر .

وقد رأيت أن أستعرض أحد تلك المواضيع التى دار حولها النقاش بقدر ما أستطيع ، وأن أحاول الإجابة عن تلك الأسئلة الحائرة التى تداولتها فيه الألسنة والشفاه ، وأن أتحدث عن بعض الأصول التى بنى عليها الإباضية مذهبهم ، واستمدوا منها عقيدتهم ، واقتبسوا منها أدلتهم وبراهينهم .

معنى الخوارج

هل الإباضية فرقة من الخوارج ؟

قبل أن يجيب أى باحث عن هذا السؤال ، يجب أن يحدد معنى كلمة الخوارج وما تدل عليه .

يطلق بعض المؤرخين كلمة الخوارج ، على أولئك الناس الذين اعتزلوا أمير المؤمنين علياً بن أبي طالب عندما قبل التحكيم ورضى به ، لأنهم فى نظر هؤلاء نقضوا بيعة فى أعناقهم ، وخرجوا عن إمامة مشروعة .

ويطلقها فريق من المتكلمين فى أصول العقائد والديانات، وهم يقصدون بها الخروج من الدين، استناداً إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ناساً من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية] وقد ورد الحديث بروايات متعددة وألفاظ مختلفة (١) .

أما الفريق الثالث : فيطلقها ويقصد بها الجهاد فى سبيل الله ، استناداً إلى قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم بدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وإذا أباح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يطلقوا هذه الكلمة — كلمة الخوارج — على جميع أولئك المتمسكين بإمامة على ، المصرين على أنها حق شرعى لا يجوز فيه التردد ، وأنه ليس من حق حتى على نفسه ، أن يشك فى إمامة أجمعت عليها

(١) ورد فى مسند الربيع بن حبيب ، الجزء الأول صفحة ١٢ الطبعة الثانية ١٣٤٩ هـ كذا : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج فيكم قوم تحمرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، تنظر فى القدر فلا ترى شيئاً ، ثم تنظر فى لحيته فلا ترى شيئاً وتبارى فى الفوق .

الأمة ، ولا أن يتساهل فيها ، أو يقبل عليها المساومة ، وأن معاوية وأتباعه فئة باغية ، يجب عليهم الرجوع إلى حظيرة الإمامة والأمة ، إما طوعا وإما كرها بنص الكتاب ، فإذا رضح على طلب البغاة ، ووضع الحق اليتيمى موضع الشك ، وتنازل عن الواجب الذى أناطته به الأمة ، وألزمته به البيعة ، فإن هذه البيعة تنحل من أعناقهم ، وهم بعد بالخيار .

قلت: إذا أباح بعض المؤرخين لأنفسهم ، أن يطلقوا كلمة الخوارج ، على هذه الطائفة ، فإنه يحق لنا نحن أن نترث وننثب حتى يستبين لنا طريق الصواب ، ويتضح منهج الحق .

ولكى ننصف هؤلاء القوم ، الذين أطلق عليهم بعض المؤرخين لقب الخوارج ، وحاربهم إخوانهم المسلمون بالدعاية الكاذبة والصادقة ، وقاتلهم ! كما لم يقاتلوا حتى أعداءهم فى ذلك الحين ، وطاردوهم ! كما لم يطاردوا حتى الزندقة والإلحاد .

لكى لا نظلم هؤلاء القوم ، ولكى نوضح موقفهم كما يرونه فى ذلك الحين . دون أن يتسرب إليه خطأ التاريخ المفروض ، أو تحامله عليهم ، ودون أن نهتم بالدعاية الكاذبة ، التى تقلب حقائق التاريخ ، قبا لا يرضاه التفكير السليم ، والمنطق القويم ، تلك الدعاية التى تعاون على بثها وإشاعتها ، كل من الأموية المتعصبة بالسلطة ، والشيعية الغالية المتطرفة ، لىكى نوضح موقف هؤلاء القوم ، يجب أن نستعرض حركة الثورات^(١) منذ فجر الإسلام ، ونضع صورته الواضحة بين أيدينا ، لتصح المقارنة ، ويكون الاستنتاج أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الدقة .

(١) لقد استعملت كلمة الثورة فى حلقات هذا الكتاب ، وأنا أقصد بها الحركة التى يقرم بها ناس لتغيير وضع لا يرضيهم دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا مما كانت بواعث هذه الحركة . وأيا كان هذا الوضع . ولم أقصد باستعمال كلمة ثورة فى هذه الحلقات . ما قد أشعره هذه الكلمة من المعنى العميق الذى يقصد به التغيير الجذرى فى حياة أمة وعقيدتها .

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفاح مستمر ضد الوثنية التي تسيطر على العالم ، وجهاد متواصل ضد القوى للتسكتة التي تعارض انطلاقة الدعوة لتحرير الإنسان من عبادة غير الله . فلما جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأنعم الله نعمته على أمة محمد ، ورضي لهم الإسلام ديناً ، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة

وباع الناس أبا بكر خائفة له ، واسكن بعد هذه المبايعة مباشرة ، وقعت أول ثورة في الإسلام ، من أناس كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكان من هؤلاء الثائرين من ارتد على عقبيه ، وأنكر ما اعترف به ، ومنهم من عزت عليه أمواله ، فامتنع من أداء الزكاة . . .

فكان في الموقف الحازم الصلب الذي وقفه منهم خليفة رسول الله ، رغم معارضة بعض الصحابة له ، كان في هذا الموقف الحازم الصلب ، إقرار لحكم الله ، وتثبيت لقدم الإسلام ، ونصر لدين الله ، وقضاء مبرم على أصول هذه الثورة أو الفتنة ، والقائمين بها ، فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، واستمر المسلمون في أداء الرسالة التي دعا إليها محمد ، طيلة خلافة أبي بكر ، وطيلة خلافة عمر ، ذلك العهد الجيد الذي يعتبر بحق امتداداً لعصر النبوة . وتولى عثمان الخلافة ، فسارت الأمور ست سنوات كاملة سيرتها في زمن الخليفتين السابقين ، ثم بدأت الأحوال تتغير ، وظهرت مشاكل جديدة ، وتعثرت سير الخلافة ، فقد أصبح قد أعمال الخليفة والنيل من سلوكه يتفشى على كثير من الألسنة ، ويجرى في كثير من المجتمعات ، ولم تتم ست سنوات أخرى حتى كانت الثورة الجائحة التي ذهبت فيما ذهبت بحياة عثمان بين سمع وبصر كثير من الصحابة ، وكانت هذه هي الثورة الثانية بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وباع المسلمون علياً بن أبي طالب أميراً للمؤمنين ، وكان أول من بايع: طلحة

ابن عبد الله، والزيير بن العوام، ولكن ما كادت تم البيعة حتى كان طلحة والزيير يحملان لواء الثورة مع جماعة من كبار الصحابة ، وقد استظفروا بأمر المؤمنين عائشة . ووقف الخليفة مع الثائرين موقفًا حازمًا صلبًا ، وقتل في هذه الثورة الطاحنة عدد غير قليل من المسلمين ، ذهب فيمن ذهب فيها طلحة والزيير ، وثابت أم المؤمنين ، ورجع بقية الثائرين إلى حظيرة الإمامة والأمة ، وكانت هذه هي الثورة الثالثة في الإسلام .

لم تكد تنتهى هذه الحرب الطاحنة ، ويعود إلى البلاد المهدوء والاستقرار ، ويعرف معاوية أن الثورة فشلت ، وأنه معزول عن ولاية الشام لا محالة ، حتى أعلن الثورة بالشام ، وهو حينئذ عامل من عمال الخليفة ، وأظهر أنه يطالب بدم عثمان ، وقد استعد أمير المؤمنين لإطفاء هذه الثورة ، كما أطفأ الثورة التي سبقتها ، وجيز جيشه القوي ، وسار به نحو الشام ، حيث التقى بالجند الثائر في الموضع المعروف « صفين » وبدأت المعركة ، ثم استمر القتال حتى ظهرت طلّات النصر ، وأشرف جيش الخليفة على امتلاك زمام المعركة ، ولم يبق للقضاء على هذه الثورة الجامعة إلا لحظات ، عبر عنها الاشتراكي (بفواق الناقة) التجأ الثائرون إلى الحيلة والخدعة ولجأوا إلى المكر والمكيدة ، فرفعوا المصاحف وهم يصيحون يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله .

طلب الثائرون هدية ، ودعوا الخليفة الشرعي وجيشه إلى تحكيم حكمين .

وقد فطن أمير المؤمنين وبعض من جيشه إلى هذه الخدعة ، وعرفوا القصد من هذه الهدنة ، ولكنه بدلا من أن يقف موقفه الحازم ، ويوالى حربه ضد الثائرين ، حتى يتحقق النصر — وقد تحققت بشأره — ويُلقي البغاة بأسلحتهم ، ويعودوا إلى صف الأمة الذي انشقوا عنه ، وبنوا عليه ، بدلا من أن يقف موقفه الحازم ذلك ، استجاب لدعاة الهزيمة ، وأخذ بنصيحة طلاب الدعة ، وأكثرهم موعود من

معاوية أو من عمرو بن العاص^(١) . ورضى بالتحكيم وقبل المدنة ، وأمر بإيقاف القتال في الحال .

وهكذا انتهت هذه الثورة الرابعة إلى هذا الموقف المانع ، الذي جعل حق على في الخلافة يتساوى مع حق معاوية ، وجعل نصيب البغاة الثأرين من الصواب يساوى نصيب جيش الأمة الذي يدافع عن خلافة شرعية تمت بالشورى ، وانعقدت بالبيعة .

وتداعى الذين فطنوا إلى خدعة الهدنة من أصحاب على وحذروه من قبولها ، وأخبروه أن قبولها يعنى الشك في خلافته والتنازل عنها . وكانوا مصرين أن الخلافة الشرعية حق لا يتطرق إليه الشك ، ولا يجوز فيها الرجوع ، ولا تقبل فيها المساومة .

وإذ خطر لعل أن يستجيب لدعاة الهزيمة من جيشه ، والمالكين من عدوه ، وأن يشك في نفسه ، والحق الذي بيده ، ويتنازل عن الشرف الذى أولاه المسلمون ، ويساوى بينه وبين أحد عماله في قضية أخذ فيها عهداً من الأمة ، وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً . ورضخ إلى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله .

حين فعل على ذلك ، تداعى أولئك الذين لم يرتضوا التحكيم ، وحذروا علياً من قبوله . وهم يرون أن معاوية باغ لاحق له ، وأن بيعة على قد انفسخت بموافقته على الهدنة ورضائه بالتحكيم ، فلم تبق لأحد فى أعناقهم بيعة ، وليس لأحد عليهم ميثاق . تداعوا إلى أن يمتزلوا جيش على ، وركنوا إلى موقع يسمى حروراء فانهزلوا فيه ، ينتظرون تجدد الحوادث ، واتجاه الأمة فى قضية الخلافة ، ويمكن أن يسمى هذا الانعزال عن جيش على : بالثورة الخامسة ، ولأن هذه الثورة إلى هذا الحين كانت ثورة سلبية ، وموقف أصحابها كان موقف المحايد الذى ينتظر مجرى الأمور ، وقد

(١) قال أبو العباس الشهرى فى السير ٤٨ : « وكان معاوية يمينهم . »

جرت الأمور بأسرع مما يتوقع لها، فما بلغ الموعد الذى حدده الطرفان لانتهاء الهدنة حتى اجتمع الناس، وأعلن أبو موسى الأشعرى مندوب على: عزل على عن الخلافة، وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون .

كان هؤلاء المحايدون يتبعون منطق الحوادث والواقع، فهم ينظرون إلى معاوية نظرهم إلى باغ يحاول أن يفرض نفسه بالكر والحيلة، ولذلك فهم لا يقيمون أى وزن لدعوى عزله، فهو لم يتول أمر الخلافة إلى ذلك الحين، لا بالإكراه ولا بالشورى، فلامعنى لعزله من منصب ليس هو فيه، كما لا يقيمون أى وزن لتولية عمرو بن العاص له، لأن عمرو لم يفوضه المسلمون فى تولية أمير المؤمنين . أما نظرهم إلى على فقد كانوا يتوقعون أن يتفق الحكمان على إقراره فى الحكم، وحينئذ ترجع إلى على الصبغة الشرعية التى تنازل عنها لإثباتها، ويجب على المسلمين حينئذ أن يوحّدوا صفوفهم تحت طاعته ما قام فيهم بكتاب الله . ولكن المندوب الذى اختاره على لمثله فى هذه القضية الظالمة، أعلن أنه عزل علياً عن أمر المسلمين، وأن الأمر أصبح للشورى والاختيار، وتأييد موقف هؤلاء المحايدين، وانضم إليهم عدد آخر ممن كانوا يقفون إلى جانب على حتى ذلك الحين، وبحثوا الأمر فيما بينهم على أساس أن المسلمين أصبحوا دون خليفة، فهذا معاوية باغ ظالم لا يمكن أن يتولى أمر المسلمين، وهذا على يعزله المندوب الذى اختاره للتحكيم، وإذن فليختاروا... واختاروا: عبد الله بن وهب الراسبي، فبايعوه أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين بعد على بن طالب، فهو الخليفة الشرعى الخامس فى نظرهم

وبهذه الخطوة أصبحت الأمة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول: دولة يرأسها معاوية - وإن لم يبايعه عليها أحد إلى ذلك الحين - ودولة يرأسها على بن أبى طالب بعد أن فشلت فى نظره حكومة الحكيم - وعاد فاستمسك بالبيعة الأولى دون أن يعترف بعزل أبى موسى الأشعرى له مندوبه فى قضية التحكيم - ودولة يرأسها

عبد الله بن وهب الراسي - بعد أن بايحه جمع كبير من الذين انفصلوا عن عليّ عند قبول التحكيم ، ثم عند إعلان الحكم بعزل عليّ عن الخلافة - ومع كل فرقة من هذه الفرق جمع غير قليل من كبار الصحابة ، وفيهم بعض المشهود لهم بالجنة .^(١) على أن هناك فريقاً رابعاً اعتزلوا هذا النقاش الذي وقع بين المسلمين ، وبعثوا عن قضية الخلافة ، فلم يطالبوها لأنفسهم ، ولم يؤيدوا واحداً من طالبيها ، ومن هذا الفريق السادة : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، وأسامة بن زيد .

بعد أن جمع الإمام عليّ جيشه ، ومن بقي تحت طاعته من الجند ، فكر في إعادة الكرة على معاوية وإخضاعه من جديد .

ولكن بعض أصحابه أشاروا عليه بمحاربة عبد الله بن وهب الراسي ، هذا الخليفة الجديد الذي وصل إلى منصب الخلافة عن طريق البيعة ، وهو الطريق الشرعي للخلافة . واقتنع عليّ بصواب هذا الرأي ، فمدل عن محاربة معاوية إلى محاربة عبد الله بن وهب ، وكان أتباع عبد الله بن وهب يعتقدون أن إمامهم هو الإمام الحق وأن كلاً من علي - بعد التحكيم والعزل - ومعاوية ثائران يجب عليهما الرجوع إلى حظيرة الإمامة والأمة .

هذه خلاصة الثورات التي اشتعلت في ذلك العصر وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أبطال الإسلام ، وقد حاولت أن أخلصها بإيجاز قدر المستطاع ، مع

(١) من للشهود لهم بالجنة عمار بن ياسر رضي الله عنه . وقتل في صفين مع علي ، بعد أن رفعت للمصاحف ، فلم يستجب لدعوة الهدنة ، واندفع إلى المعركة حتى قتل ، وقد قيل لما وافته في ذلك فأجاب بقوله : (قتله من أخرجه) . ومن المشهود لهم بالجنة حرقوس بن زهير السعدي . فقد حدثت طائفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها يوماً : أول من يدخل من هذا الباب ، من أهل الجنة . فدخل حرقوس ابن زهير السعدي ولحيته تنطر ماء ، وقد تكرر الحديث ثلاثة أيام . وقتل حرقوس بن زهير مع من أنكر التحكيم .

عناية بإيضاح القضية من الزاوية التي يراها بها أولئك الذين يطلق عليهم في بعض كتب التاريخ والأدب كلمة الخوارج . أولئك القوم الذين يرون أنهم أصحاب الحق ، وأن البيعة لم تنمقد بطريق شرعى بعد التحكيم إلا لعبد الله بن وهب الراسبي ، ذلك الخليفة الذى بايعه جمهور من الأمة ، فيهم كثير من كبار الصحابة ، من بينهم بعض المشهود لهم بالجنة . .

فإذا رجعنا إلى أول هذا البحث ، وأردنا أن نستخلص منه طائفة معينة ، من الطوائف التى قامت بالثورة ، لنطلق عليها اسم الخوارج ، فينطبق هذا الاسم عليها انطباقاً كاملاً ، من الناحيتين السياسية والدينية ، ويكونون خوارج عن الخلافة وخوارج عن الدين ، ينطبق عليهم الحديث الذى أوردناه سابقاً .
فأى هذه الطوائف النائرة يمكننا أن نطلق عليها هذا الاسم ملاحظين فيه معنى الخروج عن الإسلام ونحن مطمئنون إلى صحة أحكامنا ، ومنطقية استدلالنا وعدم انسياقنا إلى تيار معين من تيارات التاريخ .

أما أكثر أوائل المؤرخين ، وقد كانوا إما تبعاً للشيعة أو صنائع للأُمويين ، يعملون جاهدين على إرضاء متبوعيههم ، فقد وجدوا الأمر سهلاً لم يكلفهم عناء ، فأطلقوا كلمة الخوارج على العدو المشترك للأُمويين والشيعة ، أطلقوها على تلك الطائفة من المسلمين التى اعتزلت علياً عند التحكيم وبايعت عبد الله بن وهب إماماً ، وثارَت على الظلم ، وفساد الحكم فى الدولة الأُموية ، ومن بعدها ممن سار فى ذلك الطريق ، وتنكب عن سيرة الخلفاء الراشدين . ولكى يصنع أولئك المؤرخون هذه التسمية باللون المقبول ، ربطوا المعنى السياسى لكلمة الخروج بالمعنى الدينى ، وقد عملت السلطة والدعاية فى كلتا الطائفتين : الشيعة والأُموية ، على تثبيت هذا الإطلاق ونشر هذه الأقاويل ، حتى وضعت مئات الأحاديث المكذوبة فى الطعن على الخوارج ، والتشنيع عليهم ، ونسبة المروق والكفر إليهم جميعاً ، أو إلى أفراد

من رؤسائهم وزعمائهم ، وقد كان المهلب بن أبي صفرة القائد الذى ضحى بدينه لدنيا بنى أمية ، من أكثر الواضعين لهذه الأحاديث المكذوبة فى الطمن على الخوارج ، حتى اشتهر بذلك وعرفه به الناس ، فكانوا يقولون إذا رأوه خارجاً : « راح يكذب »^(١) .

كان الأمويون والشيعة يحاولون بكل ما استطاعوا أن يلصقوا هذا اللقب ، لقب الخوارج — بعد أن فسر بالخروج من الدين — بهؤلاء الثأرين الذين ينادون فى إصرار وشدة ، بالمبادئ العادلة فى الخلافة ؛ وكان الشيعة يحاولون بما أوتوا من براعة أن يحصروها فى بيت على ، كما كان غيرهم من الطامعين فيها ، يشترط لها الهاشمية أو القرشية أو العروبة ، حسب المصلحة السياسية لأصحاب الآراء فى ذلك الحين . وكل هذه الاتجاهات تجتمع على محاربة الاتجاه الذى اتجه إليه أتباع عبد الله بن وهب الراسبي . ذلك الاتجاه العادل الذى يرى أن المسلمين متساوون فى الحقوق والواجبات . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى] .

قلت فى صدر هذا الحديث : إن عدداً من الثورات وقع منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى انتهاء خلافة الإمام علي بن أبي طالب ، فأى هذه الثورات يحق أن يطلق على القائمين بها لقب الخوارج ، مع ملاحظة الخروج عن الخلافة الشرعية والمروق من الدين ؟

(١) جاء فى جغرافيا الإسلام للأستاذ أحمد أمين الطبعة السادسة ما يأتى : « وكان مما حاربهم به المهلب ابن أبي صفرة اختلاق الأحاديث عليهم : فقد كان يضع الحديث ليعده به أزر قومه ، ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ، ويقول : إن الحرب خدعة ، وكان حتى من الأزبد إذا رأوا المهلب خارجاً قالوا : راح يكذب ! وفيه يقول رجل منهم :

أنت النقي كل النقي لو كنت تصدق ما تقول . »

ولعل هذا وأمثاله هو السر فيما ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب التاريخ والأدب فى ذم الخوارج .

لتسهيل الإجابة على هذا السؤال أستطيع أن أقسم هذه الثورات إلى ثلاثة أقسام : —

الأول : ثورة ليس لها تعليل ولا أسباب غير عدم تمكن الاسلام في قلوب القائمين بها . وعدم إيمانهم بالإيمان الصحيح بتكامل الرسالة المحمدية ، ويتجلى هذا في الثورة الأولى ، التي ارتد فيها فريق ، وامتنع فريق آخر عن أداء الزكاة .

الثاني : ليس لها أسباب ظاهرة معقولة : أما أسبابها الحقيقية الخفية ، فهي النزاع على مناصب الدولة ، من خلافة أو عمالة ، ويتمثل ذلك في الثورة الثالثة التي قام بها طلحة والزبير ، وفي الثورة الرابعة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان .

القسم الثالث . ثورة استندت إلى أسباب ظاهرة يتراءى للناظر أنها معقولة ، ويتمثل ذلك في الثورة الثانية التي قتل فيها عثمان ، وفي الثورة الخامسة التي اعتزل فيها جماعة من جيش عليّ علياً بعد التحكيم ، وعزل أبي موسى الأشعري له .

فلو كان المقصود من كلمة الخوارج ، هو الخروج السياسي عن خليفة تمت له البيعة الشرعية ، لكان إطلاق هذه الكلمة على طلحة والزبير ، أو على معاوية وأتباعه ، أو على الثائرين على عثمان أظهر وأوضح ، أما إذا لوحظ المعنى السياسي مع المعنى الديني فإنه لا يمكن إطلاق هذه الكلمة عليهم ، كما أنه من العسير إطلاقها على المعتزلين لعلّ .

والسبب في هذا السر أن هؤلاء الثائرين سواء كانوا من القسم الثاني أو من القسم الثالث ، إنما ثاروا غير منكرين لأصل من أصول الإسلام ، ولا مكذبين بمعلوم من الدين بالضرورة ، ومع كل طائفة منهم فريق من كبار الصحابة ، فيهم بعض المشهود لهم بالجنة .

وبناء على هذا فإن أحاديث المروق - إذا صحت - لا يكون المقصود منها إلا أصحاب

الثورة الأولى ، أولئك الذين خرجوا على خلافة أبي بكر منكرين للشريعة أو لأصل من أصولها ، فإن هؤلاء يستطيع الباحث أن يطلق عليهم كلمة الخوارج ، وهو يقصد بهذه الكلمة معنيها السياسى والدينى وهو مطمئن ، لخروجهم عن خلافة مجمع عليها ، وإنكارهم للإسلام جملة بعد ما آمنوا به ، أو تكذيبهم بركن ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، إنكاراً استحقوا به أن يحاربهم خليفة رسول الله الأول حرباً لا هوادة فيها ، مصداقاً لقوله عليه السلام :

[لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود] — إن صح الحديث — وقد قتلهم خليفة الله رضى الله عنه قتل ثمود تحقيقاً لخبره عليه السلام .

ويستأنس لهذا رأى من توقعه صلى الله عليه وسلم أن يدركهم ، فإن هذا يدل على قرب زمنهم منه ، وأنه كان يأمل أن ينتقم الله منهم ، ولكن إرادة الله شاءت أن يتأخروا عنه قليلاً ، وأن تكون فتنهم امتحاناً لصلاة أبي بكر ، وأن تكون عتوبتهم على يد الصديق رضى الله عنه .

وكما يستأنس بهذا الحديث لهذا المعنى ، كذلك يستأنس بحديث المروق فى الرواية التى تقول (سيخرج أو سيمرق) فإن استعمال السين يدل على قرب الخروج ، ولم يكن أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخروج الذى قضى عليه الصديق وحارب أهله حرب ثمود .

على أننى أقف وقفة طويلة عند هذه الأحاديث التى تصف فرقا من المسلمين بالمروق من الدين . ولو أننى لا أملك الآن الأسباب التى تحملنى على الشك فى صحتها .

ويظهر من سياق الحوادث أن هذه الأحاديث التى تتحدث عن الخروج . لم تكن معروفة عند حدوث الثورات الأولى ، وإلا فكيف أمكن أن لا تدور على الألسنة ، وأن لا يوصف بها الخارجون عن الخلافة فى زمن أبي بكر وعثمان .

وعلى ، ولا الخارجون عن الدين في زمن الصديق ؟ لماذا تبقى محفوظة لا يستفيد منها أنصار الخلافة أو خصومها في أربع ثورات جامحة ذهب ضحيتها عدد غير قليل من المسلمين الأبطال . إن دل هذا على شيء فأنما يدل على أن هذه الأحاديث لم تكن معروفة عند وقوع هذه الثورات ، وإنها إنما وضعت بعد ذلك قصداً للتشنيع على أهل النهروان ، ولحمل على قتالهم والقضاء عليهم ، خوفاً من أن يتخرج على من دماهم ، ويتردد في قتالهم ، ويفكر تفكيراً منطقياً في أنه قد يكون لهؤلاء حق ، ولرأيهم سند .

وقد كان على شديد المحاسبة لنفسه ، كثير التفكير في أعماله السابقة ، يزن ما أقدم عليه من أحداث ، ويدل لهذا ما قاله أبو العباس الشماخي في كتابه القيم « السير » : « فقال الأشعث ناجز القوم ، وإن كلوا الناس أفسدوهم علينا » (١) فالشيعة الذين يحيطون بعلي ، وهم يكافحون لكي يبنوا دولة ، يخشون أن يتصل أهل النهروان بالناس ، وأن يقنعوهم بما لديهم من حجة وبرهان ، إن قبول التحكيم خطأ في السياسة ، وإن خلافة علي بعد التحكيم والعزل باطلة ، وإن البيعة ساقطة عن الأعناق ، وإن الخليفة الحق هو عبد الله بن وهب الراسبي ، الذي بايعه جمهور غير قليل من المسلمين ، كان الشيعة يخافون أن يتصل أهل النهروان بالناس ، ولذلك فهم يريدون أن يقضوا على هذه الآراء قبل أن تنتشر في الناس ، ويفهمها الجميع ، ويقتنوا بصحتها .

ولا يمكن القضاء على هذه الآراء إلا بالقضاء على أصحابها ، فلو تردد علي في هذا الأمر ، وتحرز من إراقة الدماء ، فإن كل شيء سوف يضيع ، ولذلك فيجب أن يحمل بشتى الوسائل والطرق على اتخاذ هذه الخطوة الحازمة الحاسمة .

وقد استطاعوا أن يقنعوه ، فافتنع برأى الأشعث ، واتخذ هذه الخطوة ، ونفذ

فكرة المناجزة ، ففضى على أهل النهران ، ولكنه لم يستطع أن يقضى على
الفكرة التى دعوا إليها ، هذه الفكرة التى تسربت بما فيها من صدق وصراحة
وواقعية إلى كثير من العقول ، حتى أصبحت مبدءاً يناضل عنه معتنقوه بصبر
وشجاعة وثبات .

وخلاصة البحث أن كلمة الخوارج ، أطلقها بعض المؤرخين على أتباع عبد الله
ابن وهب الراسبي إطلاقاً تاريخياً وأديباً ، بحيث لا تنصرف إلى غيرهم ، وليس فى هذا
كبير بحث ، فإن إطلاق اسم على مجموعة من الناس ليس بذى أهمية إذا كان هذا
الإطلاق مجرد تسمية . أما إذا روعى فيه مدلول دينى فإنه يحسن بنا أن نترىث قبل
أن نطلق هذا الحكم الرهيب ، الذى يسلطه التاريخ المفرض على رؤوس بعض
الطوائف الإسلامية فى قساوة وغلظة ، فى الحين الذى نعترف فيه أن هذه الطوائف
تؤمن برسالة « محمد » وبتكاملها ، وبما جاء فيها ، وتستند فى آرائها ونظر ياتها إلى كتاب
الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .. وتعتمد فى محاجبتها على ما جاء فى التنزيل ،
وورد فى خبر المعصوم ، وأجمت عليه الأمة ، التى لا تجتمع على ضلال ، ولو أنهم
انحرفوا فى الفهم ، وأخطأوا فى التأويل .

وقد يعتقد بمص من يطلع على هذا الفصل أننى أريد الدفاع عن الخوارج ،
وتبرير أعمالهم ، وتصحيح أخطائهم .

والواقع أننى لم أقصد إلى شىء من ذلك ، وكل ما فى الأمر أنه ساقنى إلى
هذا الحديث ، المنطقية التى وجدتها فى أبحاثهم ونظرياتهم فى قضية الخلافة ،
وحاولت جهد المستطاع أن أصور الحوادث والدواعى إليها فى ذلك العصر دون
أن أنساق مع تيار من التيارات ، وأجعل أحكامى أكثر دقة وتجرداً من المؤثرات
السياسية والعاطفية والمصلحية ، التى أثرت على كتاب التاريخ والباحثين فى العقائد
فى تلك العصور السوابق . والله الموفق للصواب .

وبسرني أن أصرح في آخر هذا الفصل ، أنني أجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتى أدع له أصحابه امتثالاً لأمره عليه السلام ، فلا أقول فيهم إلا خيراً ، وأنتى أعلم أنه لو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً فلن يبلغ مدّ أحدهم أو نصيفه ، وحسبهم شرفاً أن الله اختارهم لصحبة رسول الله ، وأنهم الدفعة الأولى من حملة مشعل الإسلام ، ولعل الله اطلع عليهم ففقر لهم ، كما قال عليه السلام في أهل بدر . أما أولئك الذين وردت فيهم أحاديث تعيب عليهم مسلماً أو قولاً فانتى لا أتجاوز فيهم معنى تلك الأحاديث ، وعهدتها على راويها وإنتى أستغفر الله من الزلل وأضرع إليه سبحانه أن يفر لي ما قد يكون انزاقاً إليه القلم مما لا يرضى عنه ، إنه ولى التوفيق والهداية .

الخوارج في نظر الإباضية

من هم الخوارج في نظر الإباضية ؟
يرى الإباضية أن إطلاق كلمة الخوارج على فرقة من فرق الإسلام لا يلاحظ فيه المعنى السيامي الثوري ، سواء كانت هذه الثورة لأسباب شرعية عندهم أو لأسباب غير شرعية ، ولذلك فهم لم يطلقوا هذه الكلمة على قتلة عثمان ، ولا على طلحة والزبير وأتباعهما ، ولا على معاوية وجيشه ، ولا على ابن فندين والذين أنكروا معه إمامة عبد الوهاب الرستمي . وإنما كل ما يلاحظونه إنما هو المعنى الديني الذي يتضمنه حديث المروق في صيفه المختلفة .

والخروج عن الإسلام يكون : إما بإنكار الثابت القطعي من أحكامه ، أو بالعمل بما يخالف المقطوع به من نصوص أحكام الإسلام ديانة ، فيكون هذا العمل في قوة الإنكار والرد . وأقرب الفرق الإسلامية إلى هذا للمعنى هم الأزارقة ومن ذهب مذهبهم ممن يستحل دماء المسلمين وأموالهم ، وسبي نسائهم وأطفالهم ، يقول العلامة أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم في كتابه الدليل والبرهان ^(١) : (وزلة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله تعالى « وإله أطمعتموهم إنكم لمشركوه » فأنبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغروها) انتهى ، وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : (وأما المارقة فقد زعموا أن من عصى الله تعالى ولو في صغير من الذنوب أو كبير ، أشرك بالله العظيم ، وتأولوا قول الله عز وجل « وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون » فقصوا بالاسم على جميع من عصى الله عز وجل ؛ أنه مشرك ، وعقبوا بالأحكام ، فاستحلوا قتل الرجال ، وأخذ الأموال ، والسبي للعيال ، فحسبهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ناسا من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم

(١) الدليل لأهل القول ص ١٥

من الرمية ، فتنظر في النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في القدح فلا ترى شيئاً ، وتتمارى في النوق ، فليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أشبه شيء بهذه الرواية منهم ، لأنهم عكسوا الشريعة ؛ قلبوها ظهراً لبطن ، وبدلوا الأسماء والأحكام ، لأن المسلمين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعصون ولا تجرى عليهم أحكام للمشركين ، فليت شري فيمن نزلت الحدود ، في للمسلمين أو في المشركين ؟ فأبطلوا الرجم والجلد والقطع ، كأنهم ليسوا من أمة أحمد عليه السلام . احوالت أعينهم فنظروا في المعنى الذي أمر الله به المسلمين أن يستعملوه في لمشركين ، من جهاد العدو والجهاد في محاربتهم ، فاستعملوه في المسلمين (انتهى) . وقال في نفس الكتاب^(١) : (وأما المارقة وهم الخوارج ، فلن يخفى على عاقل بسيرة ما ساروا في أهل الإسلام ، كسيرة أهل الإسلام في أهل الاوثان والأصنام ، كأنما بعث إليهم رسول آخر غير محمد عليه السلام ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن ناساً من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية . فتتنظر في النصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في القدح فلا ترى شيئاً . وتنظر في القديدة فلا ترى شيئاً ، وتتمارى في النوق] وفي حديث آخر [يخرج من ضئضئ هذا ناس يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية]^(٢) .

هذا رأى الإباضية الصريح الواضح في الخوارج ، وهو يتلاقى مع رأى الجمهور في التسمية ، ويختلف في التعليل ، فالأزارقة خوارج ، لأنهم أخطأوا تأويل آيات الكتاب ، وأدى عملهم هذا الخطأ إلى رد آيات ، وإبطال أحكام ، وليسوا خوارج لأنهم انفصلوا عن علي بن أبي طالب بعد التحكيم ، ولأنهم ساروا على الأمويين . إن رأى الإباضية لا يقيم أى وزن للناحية الثورية في إطلاق كلمة الخوارج ، ولكنهم يعلمونها التعليل الدينى المعقول ، فكلمة الخوارج لا تطلق إلا على أولئك الذين خرجوا من الدين ، أما الخروج عن إمام ، والثورة عليه ،

مهما كانت أسباب تلك الثورة ، وذلك الخروج ، لا يمكن أن يعتبر خروجاً من الدين ، ومروفاً من الإسلام ، ولا يصح بحال أن يطبق على انقائمين به هذا الحكم القاسى الرهيب ، ولو صح أن يعتبروا عصاة بغاة يجب تأديبهم حتى بالحرب لإرجاعهم إلى الأمة . والواقع التاريخي أكبر شاهد على هذا الرأي ، فإنه لم يعرف على الأقل فيما اطلعت عليه أن أحداً حكم بالخروج من الدين على أصحاب الثورات الذين ثاروا على أئمة شرعيين ؛ كالثوار على عثمان ، أو على ، أو عبد الله بن وهب ، أو غيرهم . وقد وقف أنصار الخلافة في كل تلك الأحوال للدفاع عن وحدة الأمة ، وقاتلوا البغاة قتالاً عنيفاً لتأديبهم ، وإرجاعهم إلى حظيرة الإمامة ، ولكن دون الحكم عليهم بالمروق من الإسلام . فلماذا إذن يطلق هذا الاسم على المعتزلين لعلى دون سائر الثوار ؟

إن هذا الاسم في نظر الإباضية لا علاقة له بالثورة ، أو بالخروج عن أى إمام ولا يطلق بحال على جميع الذين اعتزلوا علياً ، وإنما يطلق على الفرق التي تأولت آيات من كتاب الله فأخطأت التأويل ، وأفضى بها سوء الفهم والتصرف إلى إنكار أو رد بعض أحكام الإسلام القطعية ، ولو من الناحية العملية ، فخرجوا بذلك عن الإسلام ، وانطبق عليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم خوارج بالعقيدة والعمل ، لا بالثورة .

فهل بعد هذا الإيضاح والبيان ، يوجد ما يدعوني أن أقرر من جديد : أن الإباضية ليسوا من الخوارج ، وقد رأيتم رأيهم الصريح في الخوارج ، وحكمهم عليهم ، وتعليقهم لذلك الحكم .

توافق في رأي

في هذا الفصل أحب أن أثبت الملاحظة اليسيرة الآتية؛ وهي: أن اشتراك أفراد أو طوائف في رأي معين لا يعنى اشتراك أولئك الأفراد أو تلك الطوائف في جميع الآراء، واتفاقهم عليها، ومن الخطأ في فهم هذه الملاحظة اليسيرة تسربت الشبهة إلى أولئك الذين يزعمون أن الإباضية فرقة من الخوارج، أو من غيرهم من الفرق الإسلامية الكثيرة، والسبب في ذلك أن الإباضية ينتقدون قبول التحكيم، ويرون أن علياً مخطئاً في الموافقة عليه. وفي جملة حقه في الخلافة موضوع نزاع بينه وبين معاوية. كما أنه وقد رضى بالتحكيم وعزله الحكمان — أخطأ في قتاله لعبد الله بن وهب الراسبي، وأصحاب النهر. وليس هذا الرأي مقصوراً على الإباضية ولا على الخوارج، وإنما كان رأى كثير من كبار الصحابة والتابعين^(١). وتوافق آراء الإباضية والخوارج في هذه النقطة لا يجعل الإباضية خوارج، كما لا يجعل الخوارج إباضية. ولكي أوضح هذه النقطة أسوق ما يأتي:

يشارك المعتزلة والأشاعرة في أصل تنزيه الباري، فهل يجعل هذا الاشتراك في هذا الأصل كلا من المعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة؟. ويشترك بعض المعتزلة والشيعة في نظرية حصر الخلافة في البيت الهاشمي، فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من المعتزلة والشيعة فرقة واحدة؟. ويشترك الإباضية مع الخوارج في قضية الخلافة، ومع المعتزلة في الصفات، ومع الأشاعرة في القدر، فهل يجعل هذا الاشتراك كلا من الإباضية والخوارج والمعتزلة والأشاعرة فرقة واحدة؟. نعم إنها فرقة واحدة

(١) من الصحابة عبد الله بن عمر؟ وسعد بن أبي وقاص. ومما ممن لم يهتدك في حرب صفين. ومن كبار التابعين. الحسن البصري. وجابر بن زيد.

بالنظر إلى الأصل العام الذي سددون عنه ، وهو الإسلام ، ولكن هذا لا يمنع أن لكل فرقة من هذه الفرق ومن غيرها آراء تختص بها ، حسب فهمها للكتاب والسنة .

وقد تكثر هذه الفوارق بين فرقتين منها أو تقل حسب الأصول ؛ أصول الدين ، أو أصول الفقه التي ترى كل فرقة صحة اتخاذها أساساً للمقيدة أو للعمل .
أعتقد أن في الملاحظات السابقة الجواب المقنع عن حيرة أولئك الذين يربطون الملائق بين الإباضية والخوارج ، كما أنه يكفي لإقناع أولئك الذين يريدون أن يحسبوا الإباضية فرقة متفرعة عن المعتزلة ، أو الأشاعرة ، أو غيرهم ، من المذاهب الإسلامية المتعددة .

ومن هذه الملاحظة أيضاً ، يتضح أن الإباضية قد يتفقون في بعض وجهات النظر مع الخوارج ، أو مع المعتزلة ، أو مع الأشاعرة ، ولكنها ليست فرقة من هذه الفرق ، لأنها تختلف عن كل واحدة من هذه الفرق في بعض أصول العقائد ، أو بعض أصول العمل ، إنها تختلف عن تلك الفرق جميعاً في الآراء التي بعدت فيها تلك الفرق عن روح الإسلام .

والإباضية حسب أصولهم العملية ، وحسب تعاملهم مع بقية المسلمين من مخالفيهم ، وحسب السيرة الواقعية التي سجلها لهم التاريخ في مختلف العصور ، يعتبرون أبعد الفرق الإسلامية جميعاً عن الخوارج ، وسوف يتضح ذلك في الفصول الآتية من هذه الحلقات ، وفي سيرة الأبطال الذين سوف نستعرض تاريخهم المجيد ، وفي الفترات التي قامت للأباضية دول تحكم حسب القواعد التي جعلها هذا المذهب القويم .
فن هم الإباضية ؟ وكيف نشأ هذا المذهب القويم ؟ وما هي الأصول أو النظريات التي يمتاز بها عن غيره من الفرق والمذاهب ؟

وهل حقاً يعتبر أقرب المذاهب إلى أهل السنة ؟ إن الجواب على هذه الأسئلة سوف يأتي في فصول آتية من هذه الحلقة .

مِيزَانُ الْخَطَا وَالصَّوَابِ لِلْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ

إن كثيراً من الذين تحدثوا عن الإباضية في القديم والحديث ، وسواء كان ذلك في سياق البحث عن العقائد ، أو عن أحداث التاريخ ، جرت على أقدامهم هذه العبارة : « الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السنة » . وأهل السنة هم فرقة من الفرق الإسلامية ؛ لها آراء وأصول بنت عليها قواعد مذهبها ^(١) . وهي ترجع في هذه الأصول إلى الأصل العام لجميع الفرق الإسلامية — الكتاب والسنة والإجماع — ولا يمكن بطبيعة الحال أن تتخذ فرقة من الفرق مقياساً للخطأ والصواب ، فتحكم على صحة المذاهب الأخرى بمدى القرب أو البعد منها ، فإن كل أصحاب فرقة من الفرق الإسلامية الكثيرة يعتقد أنه على صواب ، وأن الحق فيما ذهب إليه ، وأن دينه الذي يدين الله به أصبح الأديان ، وأن أصوله التي استمدتها ، هي أثبت الأصول ، وهو بهذا الاعتبار يرى أن الفرق التي تشاركه في أكثر الأصول تكون أقرب إلى الصواب . ولكن هذه دعوى يدعيها أصحاب كل مذهب ، فليس لها في نظر الحقيقة قيمة ... وإنما المقياس الحقيقي الذي نقيس به الخطأ والصواب ، والميزان الصادق الذي نزن به العقائد والمذاهب والآراء والأعمال ، فنعرف مقدار صحتها ، ومدى قربها أو بعدها من الصواب ، فانما هو الميزان الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بمدى أبداً : كتاب الله وسنتي] هذا هو المقياس الصحيح ، الذي لا يتغير ، ولا يتهم ، ولا يخطئ ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . من أراد أن يعرف صحة عقيدة أو زيفها ، وقربها من الحق أو بعدها ، فليعرضها على هذا المقياس ، وليحكم حينئذ بما يتبين له ، وليدع جانباً تقارب الفرق والطوائف من بعضها وتباعدها ، ولينبذ أسماءها

(١) راجع الحديث عن أهل السنة والجماعة في الفصل : « الإباضية في قيادة الأمة » من هذه الحلقة

وألقابها ، فإن كل ذلك لا ينفى من الحق شيئاً ، وقد قرأت فيما قرأت مثل هذا الكلام للمؤرخ الليبي الأستاذ الطاهر الزاوي ، تناول فيه الحديث عن الإباضية ، وأورد هذه الجملة كأنما كان متأثراً برأى ابن حزم الأندلسي ، وإنه لمن الإنصاف للأستاذ الزاوي أن أقول : إنه تناول الحديث عن الإباضية في هذا الفصل فقط بكثير من الرقة والدقة والاحتباس ، وأنه حاول جهده في هذا الفصل فقط . أن يقف موقف المنصف المحايد الذي يدعو إلى أمّ شعث الأئمة ، ونبذها للخلاف وأسبابه ، مهما كانت مصادر ذلك الخلاف وبواعثه ، وأنا حين أذكر له هذا الموقف النبيل في هذا الفصل آمل أن يتخذ مبدءاً يدعو إليه ، ويدين الله تعالى به . وأذكر أن في كل من كتابيه « تاريخ الفتح العربي في ليبيا » و « جهاد الأبطال » لمزات مقصودة للإباضية ، وتحاملاً بيننا عليهم ، وانحرافاً عن موقف المؤرخ المحايد النزيه^(١) .

وسوف أعرض لبيان تلك المواقف في غير هذا الفصل إن شاء الله .

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا طبعة دار المعارف بمصر : ١٠٦

افتراق الأمة

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :^(١) [ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهن إلى النار ما خلا واحدة ناجية ، وكلهم يدعى تلك الواحدة] . روى الحديث بروايات متعددة مختلفة ، نص في إحداها على أن الفرقة الناجية هي التي تكون على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، وفي رواية أخرى أن جميع الفرق ناجية ما عدا واحدة هالكة . ويظهر أن هذه الرواية ضعيفة .

إن الحديث ينص أن كل فرقة من هذه الفرق تدعى أنها هي الناجية ، وادعاء كل فرقة أنها هي الواحدة الناجية أمر طبيعي ، فإنه لا يصر على اتباع فرقة هالكة إلا مجنون ، وقد جاهد أصحاب الفرق جميعاً ليبرهنوا أنهم على الحق ، وأنهم يسلكون المسلك السوي ، الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن غيرهم من الفرق حاد عن سبيل الله ، في العمل أو في الاعتقاد .

تناول الإمام هذا الحديث بالبحث ، وناقش دعوى كل الفرق وبراهينها التي تقدمها للتدليل على أنها الفرقة الناجية ، وبين أنها متساوية في احتمال أن تكون على الحق عند الله وأن تكون على الباطل ، واستخلص من كل ذلك أن الفرقة الناجية لا يمكن أن تكون إحدى هذه الفرق ، وإنما هي الفرقة التي تكون على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جميع الفرق . إهم

(١) جاء في صحيح الربيع صفحة ١٢ باب . في الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

أبو عبيدة عن جابر بن زبد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . « ستفترق أمتي ... لآل آخر الحديث » .

· أولئك المؤمنون الذين لا تفرهم أقوال الرجال ، ولا يتبعون مسالك الضلال ،
ولا يستمسكون بغير هدى المصوم وأصحابه ، الذين هم كالنجوم ، بأيهم اقتديتم
اهتديتم .

وكلام الأستاذ الإمام قيم ، وفهمه لأبرار الشريعة الإسلامية في هذا العصر
واستمساكه بالحق ، ودفاعه عن دين الله ، يذكرنا بالعصر الأول ؛ حينما كان الحق
ضالة المؤمن ، يدور معه حيثما دار ، ويقف معه أينما وقف .

الناجى والراى لك من الفرق

ظاهر الحديث الذى سقناه فى افتراق الأمة على اختلاف رواياته ، يدل أن اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين هالكَة جميعاً ، وأن فرقة واحدة فقط ناجية ، وإذا سلطنا بظاهر الحديث ، وقلنا إن المسلمين ينقسمون فعلاً إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وأن هذا العدد محصور وموجود فعلاً . فهل يحق لنا أن ننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى ؟ .

إن كل فرقة من هذه الفرق ، تحتوى على ملايين من المسلمين ، لا يعلم عددهم إلا الله ، وهذه الملايين تتفاوت فى معارفها وعلمها وعقلها ودينها وتفاوتاً لا يضبطه مقياس ، ولا يأتى عليه حصر ، والطبقة المشتغلة ببحث أصول العقائد ، التى اختلفت فيها الأمة . كالقدر ، والعدالة الإلهية ، وصفات البارى ، من كل فرقة قلة ضئيلة جداً .

أما باقى المسلمين وإن كانوا ينسبون إلى مذهب من تلك المذاهب ، إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذه المباحث العميقة ، التى تستدعى كفاءات خاصة ، وهم يقومون بواجباتهم الدينية حسب ما تاقوه ، مؤمنين بربهم ، مصدقين برسوله عليه السلام وما جاء به جملة وتفصيلاً ، متقربين إلى الله بأعمالهم ، لا تؤهلهم ثنائتهم إلى مناقشة الآيات القرآنية ، ودراسة الحكم والمنشابه من الكتاب الكريم ، ولا يخولهم تفكيرهم المحدود أن يصلوا إلى تلك المباحث التى يجرى وراءها علماء الكلام . إن العامى من الأشاعرة أو الإباضية أو المعتزلة أو غيرهم ، لا يخطر له مطلقاً أن يبحث مشكلة القدر ، فهو مؤمن بطبعه أنه لا يقع فى الكون إلا ما يريد الله ، والعامى من هذه المذاهب ومن غيرها ، لا يفهم ماذا تعنى كلمات الذات ، والصفات ، وهل للصفات عين الذات إلى آخر ما هنالك من المباحث التى تحتاج إلى كثير من الذكاء والعلم .

فهل جميع هؤلاء المسلمين ، الذين ينتسبون إلى مختلف الفرق وهم يؤمنون بربهم ، ويعملون صالحاً ، يكونون من أصحاب النار ؟ لأن ظاهر هذا الحديث يقسم المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة ، يلقى اثنتي عشرة وسبعين منها في النار ؟

تحدث كثير من الفقهاء عن إيمان المجاز ، وقال بعضهم إن إيمانهم مثل لما يجب أن يكون عليه إيمان المسلم ، لأنه إيمان بالله لا يتزعزع ، ولا تنال منه شبه مهما كثرت ، وهو في سذاجته وبساطته قوى متين ، قيل إن الصحابة سألوا امرأة بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم : عن الله . فقالت : هو في السماء ، فقال عليه السلام : [دعوها فإنها مؤمنة] . ولم يطلب منهم أن يلقوا عليها محاضرة طويلة في استعالة التحيز والحلول عن الباري عز وجل ، لأن عقلاها غير مؤهل أن تقي مثل تلك الأبحاث ، فهل هؤلاء المجاز ، الهاربين بإيمانهم ، العارفات بربهن ، القائمات بواجباتهن ، الحافظات على دينهن ، المجتنبات لما حرم الله ، بصرن إلى النار لأنهن ينتمين إلى واحدة من هذه الفرق التي حكم عليها ظاهر الحديث بالعذاب الأليم . وهل يحتم الإسلام على جميع أتباع الفرق ، من رجال ونساء ، أن يبحثوا أصول هذه الفرق وعقائدها . حتى يعرفوا الفرقة الناجية ويدخلوا فيها ، لكي تشملهم رحمة الله ورضوانه .

أعتقد أن هذا التكليف يمسر عن الطبيعة البشرية ، وأن سماحة الإسلام لا تقتضى التكليف بمثل هذا الأمر الشاق ، الذي لا يكون في طوق المسلم العادى الذى يؤمن بالله ويراعى ربه في عمله ، ويخشى الله ويتقيه في محارمه .

وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [أفلح إن صدق]^(١) عن الرجل الذى أقسم أن لا يتطوع بشيء فوق الفرائض ، مثل عن سماحة الإسلام وبسره ، وتقبله لأعمال المؤمن دون تكليف بمباحث الفلسفة ، والفروق بين المذاهب .

(١) صحيح الترمذ باب في الإيمان والإسلام والشرائع . ص ١٦

لقد رضى الله الإسلام ديناً لأمة محمد ، وختم به رسالاته إلى الأرض ، وجعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، وأمة محمد هي أمة الإجابة ؛ والموفون بدين الله من هذه الأمة — مهما كانت الفرق التي ينتمون إليها — يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، وهم أجدر أن يتقدمهم الله بالرحمة ، ويشملهم بالمغفرة ، إلا معصراً على معصية ، أو متعمقاً في فتنة .

وقد يكون من المناسب قبل أن أختم هذا الفصل أن أنقل مقتطفات من كلام أبي يعقوب حين تحدث عن افتراق الأمة ، وطريقة الجمع بين قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، وحديث الافتراق [ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة ... الخ ..] قال ^(١) : ونستظهر بما عاينا ورأينا من بلوغ هذه الأمة طرفي الأرض شرقاً ومغرباً ، وإذ أهازم الله تعالى من عبادة الأوثان ، واتخاذ غيره رباً . من غير أن تخل بشيء من طرق أهل الحق ، فالأصل السلامة . ما خلا صنفين منها : المبتدع في دين الله عز وجل ، والمصر على معصية الله عز وجل ، المبين لله . فهذان لا سبيل لهما إلى الجنة .

ويقول في غير هذا المكان ^(٢) : « والبدع متفرقة ، فكل بدعة تشرع هدم قواعد الإسلام فهي العامة الطامة ، التي تبلغ الرجال والعيال ، وأما التي تقتصر على الأخبار ، ولم تجاوز إلى هدم قواعد الإسلام ، كالاختلاف في أسماء الشريعة من مؤمن ومسلم ، وكافر وفاسق ، ومشرک ومنافق ، وفي القرآن والصفات ، فأكثر ما تضر هذه الممانى قائلها لا ساممها ، ما لم يعتقدها ديناً يدان الله تعالى به أو يقطع عذر مخالفه من المسلمين ، أو هدم به قاعدة من قواعد الإسلام ، هناك لا يعذر . ومن اقتصر على قواعد الإسلام من الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم والحج من استطاع إليه سبيلاً ، فمسي وعسى . وكذلك من كان بالغور

(١) الدليل صفحة ٩

(٢) الدليل ١ : ١٢

من أرض العدو ولم يبلغه إمامه إلا قواعد الإسلام ، ولم يبلغه ما شجر بين الأمة ،
ولم يفهمه . فإن فهم لم يقطع الشهادة عليه ، والقول على الرجال ، وأما العيال
والنسوان والبله والولدان فهم بعيدون من هذا ، وكذلك أهل بلاد السودان الذين
لم يبلغهم الإسلام إلا بعد الخمسمائة سنة من الهجرة ، ولم يعرفوا التفرقة بين المذاهب
والأفراق ، فارب أراف وأرحم من أن يؤاخذ أحداً بذنب غيره . وقد قال الله
تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »^(١)

(١) انظر تطبيق أبيه الحق على كتاب الوضع ص ٢ .

تكوّن المذاهب الإسلامية

يخيل لبعض الناس في هذا العصر. أن تكون المذاهب الدينية شبيه بتكون الأحزاب السياسية ، يجتمع عدد من الناس تحت زعامة واحد منهم ، ثم يضعون لهم مبادئ معينة ، يتفقون عليها ، ويعلنونها للناس ، ثم يدعون إليها ، ويدافعون عنها بنالديهم من حرارة وقوة . والواقع أن الفرق بين تكون المذاهب الدينية والأحزاب السياسية شاسع جداً .

تكون الأحزاب السياسية نتيجة لظروف خاصة ، وفي أزمنة معينة ، تقتضى للطالبة ببعض الحقوق ، أو رسم الخطوط لسير الدولة ، فيتقدم جمهور من شعب أو أمة — بعد الاتفاق على المبادئ — إلى المطالبة بها .

أما المذاهب الدينية : فتكون تكوناً تدريجياً هادئاً ، في أزمنة متطاولة ، حسب تولد الأفكار والآراء الجديدة في الحياة ، وحسب وقوع الحوادث — والأحداث ، وعرضها على أصول الشريعة الثابتة — القرآن والسنة والإجماع — لإعطائها حكماً شرعياً . سواء كانت هذه الأحكام متعلقة بالعمل أو بالاعتقاد .

إننا نستطيع أن نؤرخ نشوء حزب ، تاريخاً زمنياً باليوم والشهر والسنة ، ولكننا لا نستطيع أن نؤرخ نشوء مذهب ديني بهذا التحديد ، لأن تكون المذاهب إنما ينشأ نتيجة لما تجدد من أحداث ، ويحدث من آراء ، قد تطول بينها للمسافات الزمنية ، ثم إن هذه الآراء والأحداث التي تعرض على أصل من الأصول المعتمدة في الشرع لتعطي حكماً معيناً ، سواء تقاربت في زمنها أو تباعدت ، تستغرق وقتاً قد يطول وقد يقصر ؛ ليدرسها المجتهد دراسة كاملة ، ويعرضها على الأدلة الشرعية ، ويتخذ فيها القرار الصحيح السليم ، وهذا بطبيعة الحال لا يحدث في زمن واحد . لأن الوقائع التي تجدد في الحياة — سواء كانت متعلقة بالعقل أو التفكير أو العمل —

لا تجمع بعضها إلى بعض ثم تعرض نفسها على عالم يعطيها الحكم المطلوب ، ثم إن هذه الأحكام التي يطلقها المجتهدون على حوادث أزمته لم يكن الغرض منها إنشاء مذاهب أو تكوين فرق .

إن أولئك الأعلام الذين تركوا في حياة الإسلام هذا الأثر العظيم ، لم يكن في حسابهم أن أئمة سوف تقلد ، وتقديس آراءهم ، وتنسب إليهم مذاهب ، بعد أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، بالمذهب الحق ، والشرائط القويم .

إنهم كانوا معلمين من الدرجة الأولى ، فكانوا يحاولون بما أوتوا من جهد وقوة ، أن يوجهوا قلوب الناس إلى الإيمان الحق بالله ، والفهم الحق لأسرار الشريعة ، والعمل الحق بما جاء به الإسلام . فكانوا يفسرون المبهم من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، لأولئك الذين تقصر أفهامهم عن معانيه ، وتعجز مداركهم عن البلوغ إلى مرامييه ، ويشرحون مقاصد الدين لأولئك الذين تحول الدجعة دون معرفتهم لأسرار العربية في فهم الكتاب العزيز .

كان أولئك الأعلام معلمين ، وهبوا أنفسهم وجهودهم للعلم ، فكانوا يحرصون على إفادة الناس في كل مجتمع : في المسجد ، والشارع ، والسوق ، لا يكتفون ما آتاهم الله من فضله ، ولا يبتغون بما علموا عن طالب علم يجد في طلبه ، ولا يبتغون به مكسباً في الدنيا أو جاهاً عند الناس ، ولذلك كانوا حراساً أشد الحرص أن يكون ما يعلمونه حقاً ثبت لهم بالدليل ، وصح عندهم بالبرهان ، فإن هداية الناس إلى دين الله ، وتعليمهم أسرار شريعته ، وتبوير قلوبهم وبصائرهم بنور الله ، أفصل القربات عندهم ، وأزكى الأعمال لديهم ، وأحب الواجبات إلى نفوسهم .

ووثق الناس بهم ، فكانوا يلتفتون حولهم ، ويستمعون إلى أحاديثهم . ويسألونهم فيما يعرض لهم من مشا كل ، ويستفتونهم فيما ينوبهم من أحداث ، ويرجعون إليهم فيما يتورق قلوبهم وعقائدهم وأعمالهم ، من وساوس وشكوك ، فتكونت

حول كل واحد منهم هالة من المعجبيين ، نشأ عنها شبه ما يسمى اليوم — في الفلسفة والأدب — بالمدارس .

النفس حول كل واحد من هؤلاء الأعلام ، مجموعة من الطلاب والمستمعين ، يعجبون بدروس أستاذهم وآرائه ، ويقتنعون بحجته وبرهانه ، ويمتقدون سلامة الأصول التي بنى عليها أحكامه ، فيتجهون أتباعه في الفكرة والعمل والمعتقد ، ويستعملون أدلته وبراهينه ، ويحاولون أن ينشروا عنه ذلك ، وأن يقتنوا به الناس ، وبهذه الطريقة ، تصبح لبعضهم مدرسة متميزة عن غيرها في بعض الآراء أو المعتقدات . ولقد كان في كل حاضرة من الحواضر الإسلامية في ذلك الحين مدارس ذات شهرة ومكانة ، فقد كانت مكة ، والمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر ، وعمان ، ودمشق وغيرها ، مراکز ثقافية ، تشع على العالم الإسلامي نور المعرفة والهدى . وقد كان العلماء من بقية الصحابة وكبار التابعين ، أمثال عبد الله بن العباس وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وجابر بن زيد ، والحسن البصري ، وسميد ابن المسيب ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم ، يشغلون هذه المراكز ، ويقولون فيها نشر الثقافة الإسلامية .

ولما ذهبت هذه الطبقة الممتازة من الصحابة والتابعين ، خلفتهم طبقة أخرى من تابع التابعين ، وكان كل واحد منهم متأثراً بأحد أولئك الأعلام ، يترسم خطاه ، ويفتي بفتواه ، وجاءت بعد هذه الطبقة ، طبقة أخرى ، سلكت نفس هذا السبيل ، وقد كانت تجد حوادث ، وتحدث آراء ، في زمن كل طبقة من هذه الطبقات ، فيدرسها المجتهدون ، ويرجعونها إلى الأصول الثابتة عند كل واحد منهم . وبطول الزمن ، وانتشار الجهل بالدين ، وتكون طبقة من الفقهاء الجامدين ، الذين يقدسون آراء الأشخاص ، ويتحكمون في أعمال الناس ، فيدعونهم إلى اتباع رأي معين ، وتقليد إمام يروونه أعلم من غيره ، وأصوب حكماً ، تكونت المذاهب ، (١ — الإباضية)

وتعصب لها الأتباع بدون فهم ، وحاربوا غيرها في عناد وإصرار
وبلادة .

وقلدوا أولئك الأئمة الذين وثقوا بهم ، تقليد عصمة وتقديس ، وانتسبوا إليهم
انتساب فخر واعتداد .

كان نشوء المدارس الدينية والثقافية في صدر الإسلام ، واختلاف وجهة النظر
بين المجتهدين في بعض الأصول أو الفروع ، دليلاً على سماحة الإسلام ، وانفساحه
للمدارك والعقول . وعلى عدم جموده على حرفية النصوص ، وعدم تحجيره إلى
الأنفهام أن تنطلق في حرية التفكير والاستنباط ، لكن هذه الحرية الدينية التي
فهم حدودها الأقدمون ، وهذه السماحة الإسلامية ، التي أتاحت لتلك العقول
الجبارة أن تخلق في أجواء البحث والاطلاع والاستطلاع - أصبحت فيما بعد سبباً
من أسباب الشحناء والخلاف والتنازع ، عندما ميّطر الجهل على الناس ، وأعمى
التمعصب الجامد نور البصائر ، ولعبت أهواء الحكم والسياسة بالمفاهيم الحقيقية
لتعاليم الدين القويم ، واستغل الطغاة والجبابرة من الحكام ، أطماع ضعاف النفوس والعقائد ،
ممن تثق بهم الشعوب ، وتكل إليهم أمر دينها ، فانطمست الروح الحية ، وأصبحت
الحقائق الدينية ، والأصول التي تبنى عليها العقائد والأعمال ، مظاهر جدلية لنقول
لا للعمل ، وميداناً يتسابق فيه طلاب الشهرة العلمية للظهور لا للحق ، وللناس
لا لله ، وأصبح الدين بعد ذلك مرفقاً من مرافق الحياة ، يأنس إليه الناس ، بحكم
الإرث والعادة والإلف ، لا بحكم الإيمان والعقيدة والعمل . وهم يقومون بواجباتهم
كما يقوم المسيحيون بطقوس الكنيسة . ومظاهر تمودها الناس لا صلة لها
بالقلب ، ولا علاقة لها بالإيمان . إنها واجبات تؤدي وحسب . يحس الإنسان راحة
بعد الفراع منها ، كالتي يحسها عندما ينجز أعمالاً يجب عليه إنجازها .

وهذه هي الذكبة التي أصابت المسلمين ، وباعدت بينهم وبين دينهم ،
وأضعفت أثر الروح التي يضيفها نور الحق على قلوب المؤمنين ، فأصبحوا
لا يتقيدون في أعمالهم بالحدود التي رسمها الحق ، ولا يقفون عندما يشتبه
عليهم الحلال والحرام ، ولا يحاسبون أنفسهم على مسافة البعد بينهم وبين
دين الله ، ولا يفزعون لضعف ما وقر في صدورهم من إيمان .

* * *

المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية

هل تتكون المذاهب الدينية كما تتكون المذاهب الفلسفية ؟
قد أشرت في أحاديثي السابقة إلى أن بعض السطحين يظنون أن المذاهب الدينية تتكون كما تتكون الأحزاب السياسية ، وأريد هنا أن أنقذ وجود الشبه بين المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية ، فالمذهب الفلسفي هو آراء بشرية ، في قضايا الحياة ، أو ما بعد الحياة ؛ فكرة بعد فكرة ، وقضية بعد قضية ، وهي قابلة في أصولها للنقض ، وكثيراً ما تبني تلك النظريات التي يضعها العقل البشري ، على أسس من الوهم الباطل ، والنظر الخاطيء ، والمعرفة القاصرة ...

أما المذاهب الدينية ، وإن كانت حصيلة مبادئها تكويناً تدريجياً ، فإن هذه المبادئ راجعة إلى أصول واحدة ، غير قابلة للنقض أو الخطأ أو البطلان ، لأن واضعها هو عالم الغيب والشهادة . ومن هذه الأصول الثابتة المنزلة من السماء ، تستمد المذاهب اتجاهاتها ، وتقتبس أحكام دينها ، في عقيدتها وعبادتها ومعاملاتها ، وفي نظم حياتها ، ونظم حكمها ، وموقفها من غيرها من الأديان .

وليس اختلاف المذاهب في الحقيقة إلا اختلافاً في الفهم والتفسير لمبادئ تلك الأصول التي لا تتبدل ولا تتغير ، ولا يأتيناها البطلان . ولا يوجد مذهب إسلامي يزعم أنه يستمد قواعده من غير تلك الأصول ، حتى تلك المذاهب المتطرفة في الاعتماد على العقل .

والحقيقة التي يجب ألا يتطرق إليها الجدل ، أن الإسلام وهو الدين الذي اختاره خالق الإنسان ليكون النظام الذي يكفل سعادة البشرية في الحياتين ، قد قرر كل الأسس التي تنبئ عليها الحياة السعيدة للإنسان ، في كل مراحل الزمان ، وبما أن كتاباً لا يمكن أن يحوى التفاصيل الدقيقة للحوادث اليومية الجارية ، والنظريات

المكرية والعقلية والعلمية المستجدة ، والنظم الاقتصادية والعمرانية المتعاقبة في سير الزمان لحياة الإنسان الطويلة ، فقد اكتفى الإسلام بوضع الأصول التي تستمد منها قواعد العقيدة والعمل ، وبسند إليها توجيه العقول والأفهام ، وبهذا عين نقطة الانطلاق ، وجهة التحليق للتفكير البشرى ، وقد قصد الإسلام بهذا ، أن يفتح مجال البحث والتنقيب ، وأن يفسح مجال الاختيار والمقارنة ، وأن يعطى للإنسان أكبر قسط من الحرية فى العقيدة والعمل والرأى ، والإسلام لا يكره شيئاً كما يكره العبودية لغير الله ، ولا يحارب شيئاً كما يحارب الجبروت والظلم ، وتعالى الإنسان على أخيه الإنسان .

متى بدأت المذاهب الإسلامية

سألني أحد المتعلمين ، هل بدأت المذاهب الإسلامية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وعجبت في بادئ الأمر كيف يجول هذا السؤال في خاطر مؤمن ، ولكنني عندما فكرت في الموضوع ظننت — وان كان الظن لا يغني عن الحق شيئاً — أن السائل ربما فهم هذا من بعض مناقشات الصحابة ، رضوان الله عليهم ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومراجعتهم له ، أو أنه تسرب إليه من مطالعته لبعض الكتب التي أثارت مثل هذه المناقشة . كما فعل الشهرستاني^(١) . ففي مقدمته ما يشعر أن الشبه التي تعلقت بها الفرق الخاطئة ، قد أثرت أصولها في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنا إذ أسوق هذا الحديث أقرر أن أبحاث العلامة الشهرستاني أعمق من هذا السؤال البسيط ، ومهما كان الأمر ، فإنني أستطيع أن أؤكد أن هذا السؤال بعيد جداً عن الواقع . فقد عاش المسلمون في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يحتاجون إلى استنباط الأحكام ، أو تسابق الأفهام ، أو تقرير القواعد للعقائد ، لأن كل ذلك ليس من شأنهم ، فقد كان الوحي ينزل بالأحكام في كل حين ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام بشرح المبهم بقوله وعمله ، ويجب عن الأسئلة التي ترد إليه بما يشفي ويكفي . وقد يحدث أن يقف المسلمون موقف المتردد غير المقتنع في قضية من القضايا أو موقف من المواقف ، وقد يراجعونه في جواب من أجوبته التي لا يقتنعون بها بسهولة ، عندما تفرم ظواهر معينة ، وقد يسلمون لأمر الرسول

(١) الملل والنحل : الطبعة الأولى تصحيح أحمد فهمي : المقدمة الرابعة : ص ١١

ولكن شيئاً من الحيرة يبقى متردداً في نفوسهم ، وفي أمثال هذه الظروف ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقنعهم بالعمل ، وبالتأنيج المترتبة على حكمه وأجوبته ، ولعل هذه الظاهرة تتمثل في أحداث الحديبية ، التي ظن بعض المسلمين أنهم قبلوا فيها الدنية في دينهم ، واختار المسلمون فيها حيرة لم يختاروا مثلها من قبل ، وراجع فيها عمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ، وراجع أبا بكر حتى قال له الصديق رضي الله عنه : ويحك يا عمر استمسك بفرزه فإنه نبي يوحى إليه .

وأمثال هذه الحوادث لا يمكن أن يدعى أحد من الباحثين أنها نواة لتكون المذاهب ، أو أنها مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يقال فيها أنها مناقشة لزيادة الاطمئنان ، كما سأل الخليل عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيى الموتى .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتولى الخلافة أبو بكر ثم عمر ، كانت خلافتها امتداداً لعصر النبوة ، لولا الوحشة التي أعقبتها وفاة رسول الله وانقطاع الوحي ، في نفوس المسلمين واجتماعاتهم . أما في غير هذا ، فقد استمرت كلمة المسلمين واحدة . إلا فيما يحدث عندما تناقش مسألة تختلف فيها الأنظار ، حتى يذكر أحد من الصحابة فيها علماً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينقطع الجدل ، ويموت الصخب ، أو تتوافق الأكترية على حكم فتستجيب الأقلية . ويقع الإجماع ، كما وقع في البيعة لأبي بكر ، ويستمر المسلمون في كفاحهم للطفيان ، ونشرهم لدين الله وجهادهم في سبيله ، لا يجدون وقتاً للدعة ، ولا فراغاً للراحة ، وعندما تستجد حوادث ، أو تقع أمور تحتاج إلى حكم ، يتولى ذلك أولوا الأمر والعلم من المسلمين ، الذين كانوا مستعدين لهذا كل الاستعداد ، يبحثون عن الأصول في كتاب الله ، فإن لم يجدوا في سنة رسول الله ، فإن لم يجدوا في إجماع المسلمين ، فإن لم يجدوا ، فأسوها على أشباهها ونظائرها ، مما وقع فيه حكم مستمد من الأصول السابقة .

وامتد الزمن ، وانتشر الإسلام في أكثر بقاع الأرض ، ونقص عدد الصحابة

الذين عاشوا في عصر النبوة ، وشهدوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوا نزول الوحي ، ودخل الإسلامَ ناس لا يعرفون اللغة العربية ، ولا يفهمون مقاصد الشريعة الإسلامية كما يفهمها الصحابة الأولون ، فكان لزاماً أن يفسر لهم القرآن الكريم ، وأن يشرح لهم الحديث الشريف ، وأن توضح لهم مقاصد الشريعة الإسلامية ، ومن هذه الدروس ، ومن الأسئلة والمناقشات التي ترد على ألسنة المسلمين الجدد — هؤلاء المسامين الذين لم يشهدوا نزول الوحي ، ولم يروا شخصية الرسول القوية ، التي تقنع بجلال الرسالة — بدأ تكون المذاهب .

نشأة المذهب الإباضى

إذا أردنا أن نؤرخ للمذاهب الإسلامية بنسبتها إلى المعلمين الأوائل ، الذين كان لهم التأثير الروحى والثقافى الأكبر على الناس ، فإن المذهب الإباضى ، يكون من أولها نشوءاً ، فقد كان معلمه الأول جابر بن زيد ، من كبار التابعين ، الذين نشروا الثقافة الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، وقد عاش هذا الإمام العظيم ، ما بين سنتى ٢١ — ٩٦ للهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

إن أغلب المشاكل التى اختلفت فيها الأمة نشأت فى الثلثين الأخيرين من القرن الأول . وقد حصر العلامة الشهرستانى هذه المشاكل فى أربعة أصول كبار كما يقول .^(١)

١ — الصفات والتوحيد فيها .

٢ — القَدَر والعدل .

٢ — الوعد والوعيد .

٤ — السمع والعقل والرسالة والأمانة .

ثم شرح المسائل التى تندرج تحت كل قسم من هذه الأقسام ، والذى يعيننا من ذلك فى هذا الفصل أن نشير إلى ما أثير منها فى القرن الأول ، واتخذ الإباضية فيه مذهبهم ، مستندين إلى البراهين القاطعة ، والآيات المحكمة من كتاب الله الكريم .

مما أثير فى ذلك القرن ، مشا كل القَدَر والصفات ، والوعد والوعيد ، كما أن قضية الخلافة قد استنفدت جهداً كبيراً من رجال العلم والحكم فى ذلك العصر .

(١) الملل والنحل ج ١ المقدمة الثانية ص ٤

وقد درس الإباضية، وفي مقدمتهم الإمام الأكبر جابر بن زيد هذه المشاكل، كما درسها غيرهم من علماء الإسلام، وانتهوا فيها إلى الرأي والمذهب الذي اقتنعوا بصحته وصوابه، مما يوافق كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اتخذ الإباضية الأصل الأول لمذهبهم فيما يتعلق بالبارئ سبحانه وتعالى، تنزيهه تعالى عن مشابهة الخلق، استناداً إلى الآيات المحكمات من كتاب الله. وما ورد في القرآن الكريم مما يوحى التشبيه، فإنه يجب الإيمان به أنه من عند الله، وتناول الآيات الموهمة للتشبيه بما يقتضيه المعنى من السياق كتأويل الاستواء بالاستيلاء، واليد بالقدرة، وما إلى ذلك.

وفي قضية القدر، رأى الإباضية منذ ذلك الحين، أن الإيمان لا يتم حتى يؤمن الإنسان بالقدر؛ خيره وشره، أنه من الله «والله خلقكم وما تعملونه» أو له الخلق والأمر «هل من خالق غير الله» «الله خالق كل شيء»، وللمبدحق ألا كتساب والاختيار. وهكذا استقرت آراء الإباضية في أكثر مسائل الخلاف على الأصول المستمدة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ولا يزال بقية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحياء وقد رجع الإمام الأكبر في كثير من هذه المسائل إلى آراء الصحابة؛ كعبد الله بن العباس، وعائشة أم المؤمنين، كما وقع في مسألة رؤية الباري ليلة الإسراء، حتى قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية^(١).

ومن هذا الفصل يتبين للقارئ الكريم أن المذهب الإباضى اقتبس أصوله القوية التي بنى عليها عقائده وأعماله في خير القرون^(٢) حينما كانت بقية من

(١) جاء في صحيح الربيع باب (١٠) في ذكر الشرك والكفر ص ١٧ أبو عبيدة عن جابر بن زيد، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية».

(٢) إذا فسر القرن بالمعنى الزمني للتمارف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير القرون قرني، ثم الذي يلونهم.. الحديث».

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشرون الثقافة بعلمهم ، ويوضحون هدى محمد بمسلكهم ، وينصرون دين الله بارشادهم وتوجيههم ونصيحتهم ، وأنه حينما كانت تحدث المشاكل وتنجم البدع ، فيفكر فيها العلماء الأعلام ، كان جابر رضى الله عنه يدرسها دراسة المؤمن المحقق ، فإذا لم يستبين له منفذ الصواب ، رجع إلى أساتذته الذين عرفوا من أسرار الإسلام وروحه ، ما لم يفهمه غيرهم ، فعرضها على ترجمان القرآن ، أو على الحميراء التي قال فيها عايه السلام : [خذوا عنها نصف دينكم] أو أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أو غيرهم ممن أوتى الحكمة ، وأجازة الرسول عليه الصلاة والسلام للتعليم والإرشاد .

وبعد استقرار آراء الإباضية ، بأزمة مختلفة ، تطول أو تقصر ، بدأت تتكون المذاهب الأخرى ، وتنتشر في بعض جهات العالم الإسلامى ؛ فتكونت المعتزلة ، ثم تكونت غيرها من المذاهب التي يعتنقها كثرة المسلمين اليوم .

وبهذا الاعتبار ، يكون المذهب الإباضى أول المذاهب المعتدلة نشوءاً ، وأقربها إلى عصر النبوة وخير القرون ، وأفهمها الروح الإسلام ، وأسرار التشريع ، وهدى محمد وأصحابه .

ولهذه الأسباب نفسها ، نستعرض في فصول آتية ، بعض الاتجاهات التي يختص بها أو يكاد يختص بها .

قضية الخلاف

عندما كان كبار العلماء من التابعين ، يعقدون مجالس العلم ، يفسرون كتاب الله ، ويروون للناس ما حفظوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول وعمل ، ويفتخرون للناس فيما يعرض لهم من مشا كل — كانت قضية الخلافة ، قد أخذت حظها من النقاش ، واستقر فيها الناس على آراء معينة ، حسب أدلتهم التي يقتنعون بها ، وأصولهم التي يستندون إليها .

وكان جابر بن زيد الأزدي — أحد هؤلاء العلماء — اتخذ البصرة مقراً له ، ينشر فيها العلم ، ويوالي التدريس والتأليف ، ويهتم بشؤون المسلمين ، وكانت قضية الخلافة من القضايا التي مرت عليه ، ودرسها دراسة مستفيضة عميقة ، وانتهى فيها إلى رأى ثابت مبنى على روح العدالة في الإسلام ، ومستمد من القرآن الكريم ، ومستند على سيرة السلف من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .

كان يرى أن الخلافة أهم مرافق الدولة ، وأجظم مظهر للأمة ، وأقوى سلطة تشرف على تنفيذ أوامر الله ، وتطبيق أحكام الكتاب الكريم ، وهي بهذا الوصف لا يمكن أن تخضع لنظام ورأى ، ولا أن ترتبط بجنس أو قبيلة أو أسرة أولون ، وإنما يجب أن يشترط فيها الكفاءة المطلقة ؛ الكفاءة الدينية ، والكفاءة الخلقية ، والكفاءة العملية ، والكفاءة العقلية ؛ فإذا تساوت هذه الكفاءات في مجموعة من الناس ، أمكن أن تجعل الهاشمية أو القرشية أو العروبة من أسباب المفاضلة ، أو من وسائل الترجيح ، أما في غير ذلك فليس لها حساب .

وقد عرف الناس هذا الرأى لجابر بن زيد ، كما عرفوه لكثير من العلماء المعاصرين له ، ولكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان طلابه

ينشرون ذلك عنه ، ويتحدثون به ، وفي هذه النقطة يلتقى رأى الإباضية برأى الخوارج ، ومن هنا زلق بعض المؤرخين ، فحسبوا أن الإباضية فرقة من الخوارج ، دون أن يجهدوا أنفسهم فى الاطلاع على بقية الأصول والآراء . وقد سبق أن قلت فى موضع من الفصول السابقة ، أن توافق فرقتين على رأى معين ، لا يجعلهما فرقة واحدة ، ولعل قضية الخلافة هى أهم قضية يلتقى فيها الإباضية والخوارج على رأى واحد ، وفيما عدا ذلك فالإباضية أبعد الناس عن الخوارج فى فهمهم للإسلام ، وعلمهم بأحكامه .

على أننى أعتقد أن الأمة الإسلامية — بعد التجارب الطويلة المريرة ، وبعد أن ابتعد بها التاريخ عن المؤثرات الخاصة ، التى سيرتها فى اتجاه معين — لا يسمها إلا أن ترى رأى الإباضية فى قضية الخلافة ، وأن علماء الإسلام لا يمكن أن يرجعوا غير هذا الرأى ، وإذا قدر للأمة الإسلامية أن تجتمع ، وأن ترجع إلى حكم الله ، وأن تلتفى هذه الشرائع التى جاء بها الاستعمار ، لإبعاد هذه الأمة الإسلامية عن كتاب الله ، وقدر للخلافة الإسلامية أن تتولى شؤون المسلمين كما أمر الله ، لو قدر ذلك ؛ وكان للأمة أن تختار رئيس الدولة الذى تلتقى بين يديه بمقدرات الأمة ، ما وسعها إلا أن ترجع إلى قواعد هذا المذهب ، لتختار الخليفة أو رئيس الدولة ، حسب الشروط السابقة التى أشرنا إلى بعضها ، ولما أقامت للهاشمية أو القرشية أو العروبة أى وزن ، اللهم إلا فى مقام الترجيح ، عندما تتساوى المواهب والكفاءات ، وإن تتساوى المواهب والكفاءات فى أمة تشتمل على الملايين من مختلف الأفهام والعقول والأخلاق .

وإنه ليسرنى حقاً أن أقتطف من الأستاذ محمد الغزالى ، السطور الرائعة الآتية ، لأختتم بها هذا الفصل : « ونحن نتساءل فىم هذا الجدل كله ؟ وما يضرنا

أو يفيدنا من هذا النسب ؟ وما ينقصنا أو يزيدنا من إفريقيا أو آسيا ؟ وما فضل
هبد شمس على توت هنج آمون ؟ أو تحتس على عنتره ؟ ولماذا لا يقال في إيجاز إن
الزنجي المسلم خير من الهاشمي المنافق ، وأن قضية فلسطين من شأن الإسلام والمسلمين ،
قبل أن تكون من شأن العرب والمستعمرين ، وأن صاحب الرسالة العظمى قال :
« لَيَفْتَتِهِنَّ أَقْوَامٌ مِنَ الْفَخْرِ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا ، إِنَّمَا هُمْ فِمْ جَهَنَّمَ ، لِيَكُونُوا أَهْوَنَ
عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَمَلَانِ الَّذِي يَدُهُ الْخَرْدُ بِأَنْفِهِ ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيبَهُ
— كِبَرُ — الْجَاهِلِيَّةِ ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقَى ، أَوْ فَاجِرٌ شَقَى ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ ،
وَأَدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ » .

موقف الإباضية من أسواق الجدل

لعل من الصفات التي يمتاز بها الإباضية ، أنهم لا يميلون إلى كثرة الجدل ، ولا يرتاحون للمناقشة الفارغة ، والخصام المتعنت ، ولا يشغلون أوقاتهم بترديد الأقاويل ، وإطالة الأحاديث ، وذلك أن قواعد الدين جعلتهم يؤمنون بقيمة الفكرة لا الكلمة ، ويجدون قوة الدليل في العمل . لا في القول ، ويعرفون أن إقامة الحجة بالسلوك أقوى منها بالدعوى ، ولذلك فانت عندما ترجع إلى أسواق الجدل ، ومؤتمرات الكلام في التاريخ الإسلامي الطويل ، فإنك تجد الإباضية أقل الفرق كلاماً وأكثرها عملاً ، وأخفها حديثاً ، وأرجحها إيماناً ، وأبعدها عن الدعوى وأدناها إلى الاهتداء .

وعندما انتقلت المناقشات من طور البحث عن الحق ، والتماس الصواب ، وتصحيح العقيدة ، إلى طور آخر : هو عقد مجالس للخصام ، ومجامع للمناظرة واللعب بالكلام ، والجدل للحصول على لذة الفوز في المارك البيانية الحامية ، التي يقصد منها الظهور أكثرها مما يقصد منها البحث عن الحقيقة ، وظهر في أفق الحياة ، حياة المسلمين ، أولئك نفر الذين يريدون أن يملأوا الدنيا بالضجيج ، ويشغلوا أذهان الناس بالقول . .

عندما انتقلت حياة المسلمين إلى هذا الوضع ، رجع الإباضية — وقد آمنوا بصحة مذهبهم ، وسلامة عقيدتهم ، بعد أن محصوها وبنوها على الأصول من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم تدخلها بدعة أو خرافة ، وعرضوا مختلف المشاكل على الميزان الذي وضعه المشرع الأكبر ، قبل أن يشتد اللجاج بالناس — رجع الإباضية إلى أنفسهم يحاسبونها على العمل بما علمت ، ويسيرون بها على نور من دين الله ، ينشرون ما ثبت عندهم بالدليل الذي لا يحتمل التأويل ،

فى هدوء واتزان ، لا يشغلون أنفسهم بالصخب الداوى الذى ليس له نتائج ، ولا يلقون بأنفسهم فى الكفاح الكلامى الذى يهدف إلى مظاهر العظمة والنفوذ فى الدنيا ، ولكنهم مع كل ذلك كانوا أحرص الناس على إقامة الحق ، وإثبات أدلته ، وعندما يقتضى الموقف الرد على أباطيل المدعين ، وترهات المبتدعين ، وشبهات المفترين ، فإن علماء الإباضية يكونون أسرع الناس إلى تحطيم الباطل ، الذى يريد أن يستعلن ، أو الشبهة التى يبتغى صاحبها أن يكسوها ثوب الحججة ، وما أن يحطموا الباطل ، ويفحموا أصحابه ، حتى يعودوا إلى العمل فى سبيلهم الذى مهدوه ، وسلوكهم الذى اختاروه ؛ عمل صالح لله والأمة ، واستمسك متين بالكتاب والسنة ، ودؤوب لا ينتطع لإعلاء كلمة الله . يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، ويتبعون سبيل الله الذى حدده الإسلام ، وأوضحه هدى محمد عليه السلام . كفاح لا تصاحبه ضجة . ونصر لا تسبقه دعوى ، ولا يعقبه تبجح أو افتخار أو مباهاة . وجدل حتى هادىء لا يصخب ولا يلمن ، ولكنه يقطع طريق التحدى ، عن الأهواء والبدع ، ويلزم الباطل أن يوارى فلا يستعلن ، ويتضاءل فلا يبين .

كان واصل بن عطاء إمام المعتزلة ، يتوق إلى مجادلة أبى عبيدة مسلم ، ويعد العدة لذلك ، حتى سححت له الفرصة ذات يوم ، وجمعهما مكان ، فقال واصل لأبى عبيدة : أنت الذى تقول : إن الله يعذب على القدر ؟ فقال أبو عبيدة : لا ، ولكنى أقول يعذب على المقدور . ثم قال أبو عبيدة لواصل : أنت الذى تقول : إن الله تعالى يعصى باستكراه ؟ فمجز واصل وسكت عن الجواب . فقيل له بعد ذلك : سألته فتخلص ، وسألك فسكت ، فقال واصل : بنيت له بنيانا منذ ثلاثين سنة ، فهدمه وهو واقف .^(١)

كان المعتزلة أكثر الفرق الإسلامية حبا للجدل ، ولذلك فهم لا ينفكون عن تحدى غيرهم من الفرق الإسلامية ، وتحدى جماعة منهم أهل المذهب ، فمقدوا مجلسا للمناظرة ، وتقدم المعتزلى الذى سهر فى إعداد الأسئلة والأجوبة ، فبادى : يا عبد الله ، فلم يجبه أحد ، لأن المجلس يشتمل على عدد من العبادلة ، فقال : عبد الله ابن اللمطى الإباضى أريد ، فأجابه ، فقال المعتزلى : يا عبد الله : هل تستطيع أن تنتقل من مكان لست فيه إلى مكان أنت فيه — فقال عبد الله : لا ، فقال المعتزلى : هل تستطيع أن تنتقل من مكان أنت فيه إلى مكان لست فيه فقال : إذا شئت ، فقال : خرجت منها يا ابن اللمطى ^(١) . وهكذا انتقض ما بناه المعتزلى وسهر فى إعداداته والتفكير له لىالى سودا .

وقع فى نفس الحجاج شىء من القدر نشكا ، ذلك إلى كاتبه يزيد بن مسلم ، فبعث يزيد يسأل جابراً — وكان به معجباً ، وفيه واثقاً ، فأجابه : قل للأمر بكثرة من ترديد خطبته ، فإن فيها الجواب عما يسأل : وردد الحجاج خطبته ، وأكثر فيها التفكير ، فانتبه إلى أن خطبته تشتمل على قوله تعالى :

« من يهر الله فهو المهزوم ومن يضل فأولئك هم الخاسرون » .

وفى الآية الكريمة الجواب على حيرة الحجاج ، فقال ليزيد : ويحك يا يزيد ، ما أعلم صاحبك ^(٢) .

وأراد جماعة من الخوارج — وهم يستحلون أموال المسلمين وسبى نسائهم وأطفالهم — أن يجادلوا جابراً ، فقال لهم :

أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين ؟ فقالوا : نعم ، فقال : وحرم البراءة منهم بدين ؟ فقالوا : نعم ! فقال : أو ليس قد أحل دماء أهل الحرب بدين بعد

(١) السير ص ٢٢٢ وقد ذكر القصة ابن الصغير والبارونى فى الأزهار .

(٢) راجع السير لاشماخى ، وشرح عقيدة التوحيد لقطب الأئمة .

تحریمها بدین ؟ فقالوا : بلی ! وحرم الله ولايتهم بدین بعد الأمر بها بدین ؟
والوا : نعم ! فقال : هل أحل ما بعد هذا بدین ؟^(١)

فسکتوا ، وهكذا استطاع أن يسیر بهم خطوة خطوة حتى يضع أيديهم على الحق ، ويعرفهم أن الأحكام التي تنطبق على المسلمين ليست كالأحكام التي تنطبق على المشركين ، وأن الموحدا إذا ارتكب ما يحل به دمه لا يكون ذلك كافياً لاستحلال ماله ، وسبی نساؤه وأطفاله .

إن دم الموحدا قد يحل لتنفيذ حكم الله في العقوبات على بعض الجرائم الاجتماعية أو السياسية ، كالقتل والزنا ، وقطع الطريق والبغي ، وهذه الأحكام إنما يقصد منها أولاً عقوبة المجرم على ما ارتكب ، وثانياً زجر الناس عن ارتكاب مثل هذه الآثام ، والعقوبة في كل أحكام الشريعة ، إنما قدرت بالضرورة : وبنيت على الأسباب الداعية إليها ، وحددت طريقة تنفيذها دون إسراف أو مبالغة .

ولذلك فلا يحل أن تتعدى الحدود التي رسمت لها ، وهذا المعنى دق على أفهام بعض الناس ، فسألوا الإمام علياً لما ناقشوه عن وقعة الجمل فقالوا : حللت لنا دماء قوم وحرمت علينا أموالهم . وهو نفس السؤال الذي وجهه أحد جنود أبي الخطاب عبد الأعلى عندما احتل القيروان ، فأنكر عليه أبو الخطاب هذا السؤال وزجره عنه ، وقال له : لو فعلنا ذلك لكان حقيقاً على الله أن يكبنا معهم في النار^(٢) .

(١) راجع المصدرين السابقين :

(٢) جاء في السير : ١٢٩ مايلي :

« وكان رحمه الله أحسن السيرة فيهم حين هزمهم ؛ لم يجهز على جريح ، ولم يتبع مدبراً . فقال له خالد الدواق : تأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا . قال أبو الخطاب : حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار . « كما دخلت أمة امت أختها حتى إذا أدركوا فيها جيماً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لا كل ضعف ولكن لا تعلمون » ثم ارتحل . « ١٠ » .

الاجتهاد

ذهب كثير من الفرق الإسلامية إلى إغلاق باب الاجتهاد بعد عصور معينة ،
حاسبين أنه لن يأتي ناس في مستوى المجتهدين السابقين ، وأنه لم يبق في الدين
ميدان بنفسح للاجتهاد .

وحينا حجر هؤلاء الجامدون على عقول المسلمين وأفهامهم أن تنطلق ، وتخلق
في الميادين الفساح التي فتحتها الكتاب الكريم بدعوة المؤمنين إلى الانطلاق
والتححر والتفكير ، حين فعلوا ذلك وأوقفوا تيار التفكير ، جمّدوا الإسلام
من جهة أخرى على نظرات وبيئات وأزمنة خاصة .

وقد عرف الإباضية منذ أول وهلة ، أن هذه الفكرة الجامدة لا تتمشى مع
روح الإسلام الذي يصلح لكل زمان ومكان ، فإن الإسلام بعد أن رسم الحدود
التي لا ينبغي تخطيها ، أراد من المسلمين أن ينطلقوا بمواهبهم وأفكارهم ، وعلومهم
وأفهامهم في ميادين الحياة ، يرودون المجاهيل ، ويفتتحون المغالق ، وينبشرون السبيل
أمام أفواج البشرية في جميع الأعصار والأمصار ، فلم يحجر على أواخر الأمة
ما أباحه لأوائلها ، والمسلمون في جميع العصور لا يتفاضلون إلا بالتقوى والإيمان
والعمل الصالح ، والكفاح المتواصل في سبيل الله ، باستثناء شرف الصعبة لأولئك
النفر الذين اختارهم الله أن يكونوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والدفعة الأولى
التي تحمل مشعل الهداية لخير البشرية الضالة .

إن حاجة المسلمين إلى المجتهدين في العصور المتأخرة ، وإلى أبحاثهم في هذه
المشاكل الكثيرة ، التي تعرضها الحضارات المختلفة على الأمة ، أشد من حاجتها
إليهم في الأزمنة السابقة ، ووصول العاملين من هذه الأمة إلى الاجتهاد أيسر في هذه

المصور لسهولة المواصلات، وإمكان اتصال العلماء، وحصولهم على جميع المصادر التي تساعد على أبحاثهم ومناقشتهم .

ولما كان الإباضية يعتقدون أن ما فتحه الله لأوائل هذه الأمة لا ينفلق عن آخرها ، وأن باب الاجتهاد الذي تركه [محمد صلى الله عليه وسلم] مفتوحاً على مصراعيه ، لا يمكن أن ينفلق فقيه مفلق الفهم ، ولذلك فقد ناقشوا قضية الاجتهاد والمستوى العلمى الذى يؤهل صاحبه للقيام بهذا المبداء . وهل يصح الاختصاص فيه لمن استكمل شرائط الاجتهاد فى قسم دون قسم ؟ لئلا تتوقف الملكات والمواهب فى ميدان من ميادين العلم والحياة ، من أجل ميدان آخر تعمل فيه ملكات وعقول أخرى .

ولعل فيما كتبه العلامة السالى فى هذا الموضوع كثيراً من الايضاح والتحقيق ، فاستمع إليه يقول بعد أن أوضح الشروط التى يجب أن تتوفر فى المجتهد ، كالعلم باللغة ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، ومصادر الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع : « أما إذا اختلف منها بعض الشروط ، وكان عالماً بشيء دون شيء ، كما لو كان عالماً بأدلة النكاح ، دون غيرها . أو بأدلة البيوع دون غيره ، أو نحو ذلك . وكان متقناً بما علم منها ، اتقاناً تاماً . فهل يجوز له أن يجتهد فى استنباط ما علم من الأحكام ؟ أم لا يجوز له حتى يكون عالماً بجميع أحكام الكتاب والسنة ؟

ذهب الإمام الكدى رضى الله عنه إلى جواز ذلك ، ونسب هذا القول إلى أكثر الأصوليين ، وقيل لا يجوز الاجتهاد فى بعض المسائل دون بعض ، وإن عرف من ذلك البعض الأدلة التى تتعلق بها أحكامه ، وهذه المسألة معروفة عندهم ، بتجزئ الاجتهاد ، والصحيح ما عليه الإمام من جواز ذلك . لأنه لو اشترطنا

كمال الاجتهاد في كل فن ، بحيث لا يجهل المجتهد شيئاً من مأخذ كل مسألة ، للزم أن لا يجهل المجتهد شيئاً من المسائل الاجتهادية ، لكمال علمه بمأخذ كل مسألة ، وإلا كان قاصراً ، وقد سئل مالك بن أنس عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع . وقال في البقية لا أدرى ، فلو لا أنه يصح الاجتهاد في مسألة دون أخرى ، لما جاز له أن يجيب عن البعض ، وكذلك نقل عن بعض الصحابة : التوقف في مسائل الأحكام ، معاذ وابن عمر وغيرهما ، وكذلك عن التابعين ، وتابع التابعين ، حتى حتى صار ذلك شعاراً في علماء الآخرة ، فلو لم يكن الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض جائزاً ما ثبت هذا التوقف عنهم .^(١)

هكذا بكثير من السماحة والوضوح والتحرر ، يناقشون المشاكل مستندين إلى عمل الصحابة والتابعين ، وسيرة السلف الصالحين ، لا يحجرون ما وسعه العلم ، ولا يحرمون ما أحله الدين . ولا يتركون مشاكل العصور المتتابعة تتراكم مزدحة على أبواب من الاجتهاد أغلقتها أفهام بليدة ، لتعود هذه المشاكل القهقري لتتطلب الأحكام من علماء قد بليت عظامهم ، وفيت أنظارهم ، واستوفوا آجالهم منذ قرون مديدة . . .

ولأنه لما بيعت على انشراح قلوب المؤمنين أن أدرك أكثر علماء المسلمين في هذا العصر ، صواب هذه النظرة عند الإباضية ، فانتفضوا يقطعون هذه السلاسل التي كبلت فرقا من المسلمين عصوراً طويلة ، ويكسرون هذه الأبواب التي أغلقت دون الانطلاق في سماء التفكير والاجتهاد ، ويقتحمون هذا الميدان المحجور الذي خصصته النظرة الجامدة متحفاً للموتى ، ويبيحون للمسلمين ما أباحه الله لهم ، بل وندبهم إلى السباق فيه فقال :

(١) شرح طلبة الدرس ج : ٢ : ٢٧٨ .

« فلو نغمر من كل فرقة منهم طائفة لنفقهوا في الدين ، ولبنذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »

ومن المحقق أنه ليس مطلوباً من هذه الطائفة التي تدعى لحل رسالة الله وتفقيه
المسلمين في الدين ، وإنذارهم عند ما يستكملون عدة الدعاة من الإيمان والعلم والعمل .
ليس مطلوباً من هذه الطائفة أن يكونوا حملة لمسائل جافة ، وقضايا مسلمة ،
يحتزنونها في ذواكر جامدة ، كأنها طبعة مكررة ، لكتب محفوظة . فإن
أمثال هؤلاء لا يصح أن يوصفوا بالفقه ، ولا يستطيعون الإنذار ، ولا يقولون
على حل رسالة الله .

وقد يكون الأمتياز من أوائل من حطم الجلود ، وحل لواء الثورة على
الرجعية الدينية التي تحكمت في المسلمين ، عدة قرون ، وتوقفت بهم دون تقدم ،
تنظر في حيرة وارتيباك إلى موكب الحياة يتغلغل بالبشرية في أطواء الزمن ، ودعا
إلى التحرر من هذا القيد الذي كبل به جهالة الفقهاء انطلاقة الفهم الإسلامي
العميق لأحداث الزمن وتطورات الحياة .

كان الإباضية منذ العصر الأول ممن وعى هذه الحقيقة ، وفهم روح الإسلام
التي دعا إليها في الكتاب الكريم ، وهدى رسوله القويم في توجيهه لأصحابه
رضوان الله عليهم ، كما فعل عليه السلام مع معاذ بن جبل ، حتى حمد الله على توفيق
رسول الله . فلم يسمحوا لهذا القيد أن يغل أيديهم ، ولهذا الحجز أن يقف
دون انطلاقتهم ، ولهذا الجلود أن يسيطر على عقولهم وأفهامهم وعلومهم ، وذلك
لأنهم يعتبرون مدارك الناس ومواهبهم متساوية ، وكما أمكن أن تجيء القرون
الأولى بالعلاقة الأعلام ، يمكن أن تجيء القرون المتوسطة والمتأخرة بالعلاقة
والأعلام .

مادامت المصادر التي يستقى منها الأولون هي نفس المصادر التي يستقى منها المتأخرون ، مع ما تيسر من وسائل الاتصال والاطلاع والمعرفة .

وهذه قضية ثانية من القضايا التي يكاد يفرد بها الإباضية ، والتي تتمشى مع روح الإسلام ومع حقيقة الحياة ، ومع طبيعة الوجود ، وقد غفل عنها كثير من أصحاب المذاهب الأخرى ، ولم يفهموا حقيقتها إلا في هذا العصر الذي بدأ فيه المسلمون يتفقدون عنهم غبار الغفلة والجود والرجعية ، وينطلقون فيما مهدته سماحة الإسلام ، ودعا إليه سيد الأنام ، عليه الصلاة والسلام .

الإسلام عقيدة وقول وعمل

من المسائل التي يكاد يفرد بها الإباضية : هذه القاعدة الهامة التي لا يمكن أن تكون للإسلام ثمرة بدونها ، هذه القاعدة هي اشتراطهم العمل لتمام الإسلام .

« إنه الدين عند الله الإسلام »

والإسلام لا يتم إلا بقول وعمل ، فالقول : النطق بكلمة الشهادة ، والعمل الإتيان بجميع الفرائض ، واجتناب جميع المحرمات ، والوقوف عند جميع الشبهات . النطق بالشهادة يدخل الشخص في الخطط الجغرافية للمسلمين ، فيحرم دمه ، وماله ، وتحفظ كرامة نسائه وأطفاله ، لقوله عليه السلام : [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها] ، قيل وما حقها يا رسول الله ؟ قال : [كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل النفس .]^(١) أما أن يكتفى المرء بالنطق بهذه الكلمة ، ويهمل العمل بما فرضه الله ، فهذا إيمان غير تام ، وعمل غير صالح ، إن طبيعة الإسلام تقتضي من الشخص أن يؤمن بالله ورسالته ، وأن يصرح بهذا الإيمان ، وأن يندفع للعمل بما جاءت به هذه الرسالة ، التي آمن بها .

ولو ألقيت نظرة إلى العالم الإسلامي اليوم ، الذي يموج بملايين من البشر ، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويفخرون بأنهم مسلمون ، اختارهم الله لأن يكونوا في الأمة التي أراد الله أن يحتم بها الأمم المؤمنة ، وينسخ

(١) جاء في صحيح الربيع باب : جامع الفزو في سبيل الله الجزء الثاني ص ١٩ بلفظ . (أبو عبيدة عن جابر بن يزيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها »

بشريعتها شرائع السماء . إنك لو ألقيت نظرة إلى هؤلاء المسلمين وإلى أعمالهم ،
لأذهلتك النتيجة ، وساءت لك المقارنة .

إن الله حين أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بشريعة الإسلام ، أراد أن يكون
المسلم كله لله ، وأن لا يكون لله في المؤمن شريك ، فإن الله أغنى الشركاء ، فإما أن
يتوجه المؤمن إلى الله بقلبه ولسانه وجوارحه وإلا فإن الله غنى عنه .

وما جدوى أن يلوك اللسان كلمة التوحيد ، ويمتلئ القلب بحب غير الله ،
وتسابق الجوارح إلى كل ما نهى الله عنه ، تاركة لما فرضه الله عليها .

ما وزن هذا المسلم الذي لا يقرب الصلاة ؟ أو لا يعترف بالزكاة ؟ أو لا يحج
إلا للبهاه ؟ .

وما وزن هذا المسلم الذي يدخل الحانة فيشرب حتى يفقد عقله ؟ والمقمرة
حتى يفقد ماله ؟ والماخور حتى ينهك صحته ويهتك ستره ؟
ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذي ينطلق في الشوارع تحمل أصابعه المسبحة ليراه
الناس ، وتتم شفتاه بلا إله إلا الله ، وتجول عيناه بين المفاتن التي حرم الله ، حتى
يجد من أعين الناس غرة ، فيرتكب الفاحشة ، ويبتر المال الحرام ، ثم يخرج فيضفي
على المدخل الفاسق ثوباً من الوقار الخارجي ليظن الناس أنه مؤمن ؟

وما وزن هذا المسلم ؟ الذي يحتج بقول الفيلسوف على قول الله ، ويرد
بنظرية فرويد على سنة رسول الله ، ويمتز بفلسفة ماركس دون فلسفة الإسلام ،
ويعطل أحكام الكتاب بالبدساتير التي وضعها جان بول سارتر ،^(١) أو جون ديوى ،
أو كارل ماركس ؟

(١) ليس المقصود هذه الأسماء التي عيناها فقط، ولكنهم مثل لمشرب من الشخصيات التي
توصف بالفلسفة أو الحكمة ، وتؤخذ أقوالها وآراؤها بدلاً من أحكام الله ، فإذا قلت : قال الله ،
أو قال رسوله أجبت : قال فرويد ، أو داروين ، أو ماركس . أو سارتر ، أو غير هؤلاء ممن
تمتلئ قلوب المفتونين إعجاباً بهم .

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى ينفق الأموال فى كل سبيل إلا سبيل الله والخير ،
ويشترك فى كل مشروع إلا مشروع المعروف ، وينهى عن كل مجلس إلا مجلس
المفكر؟!!!.

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى يستغفل الناس بالدين ، ويختلمهم عن أموالهم باظهار
التقوى ، فيسرقها باستحقاق الصدقة ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن هذا المسلم الذى يستعبد الناس وأموالهم بحرية التملك ، ويسخرهم
تسخير العبيد بدعوى ولاية الأمر ، ويحكم عليهم بالتجهيل ، والتفكير والإذلال ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وما وزن ذلك المسلم الذى سمع بهذا العصر فتعصر ، وقيل له عن الاشتراكية
فتشرك ، ثم دعى إلى الشيوعية فتشيع ؟

ما وزن هذا المسلم عند الله ؟

وليست هذه الصور مقصورة على الأفراد ، وإنما هى تنطبق على الدول . إنها
تنطبق كل الانطباق على هذه الطوائف الحائرة من بلاد الإسلام ، التى تدعى كل
واحدة منها أنها دولة ، تستعصم بالعروبة وتترك الإسلام ، وتعزى بالعنصر ، وتقنسى
الدين . وتقلد أعداء الله وأعداءها فى طرق الحكم ، وتنبد طرق الحكم التى وضعها
الله لها ، ثم بعد كل ذلك تفاصب بعضها العدا ، وتستعين على إخوانها فى الله بأعداء
الله ، تستمد منهم الرأى والخبرة ، والسلاح والذخيرة والحيلة والسكيد .

ما وزن هذه الدول عند الله ؟

إنك تستطيع أن تجد ملايين من الصور لملايين من البشر ، تطلق ألسنتهم بكلمة التوحيد، ولكنهم في غير ذلك ليسوا مسلمين ، فهل يتم إيمان كل أولئك ، ويحسبون على الإسلام ؟ لو كان هذا الإيمان كاملاً كما أراده الله ، وكان إيمان هؤلاء النشأ كإيمان أولئك الصناديد الذين يرون أن العمل هو شريطة كمال الإيمان . لكان العالم كله يسير اليوم على شريعة الله . فإن عشرة آلاف من المسلمين — عندما كان الإسلام إيماناً وقولاً وعملاً — استطاعوا أن يهدوا الملايين إلى دين الله بسلوكهم ، قبل أن يهدوهم بأقوالهم وأسيافهم ، واستطاع أولئك الآلاف القليلة ، أن يثبتوا حكم الله قويا مزدهراً في بلاد الله ، وإن كان أهلها على غير الإسلام ، لأن أولئك القلة كانوا مسلمين حقاً بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم . إنني أزعـم — وقد أكون مخطئاً في هذا الزعم — أنه لم يضر الإسلام ، ويهونه في نظر أتباعه ، ويجريء المسلمين على ترك فرائضه ، وانتهاك حرمانه ، وعدم التقيد بشرعه — شيء مثل ما أضر به هذا القول الذي يضاف إلى الإسلام الكامل على رجل ليس له من الإسلام إلا قولة لا إله إلا الله ، وتشدق بعض المتفهمين ، الذين يستغلون ما حفظوا دون فهم ، ويجهلون لإرضاء العامة والجهلة من الناس بتهوين أسباب المعصية لهم ، ويدجلون باسم بعض المذاهب ، قائلين : إن جهنم لم تخلق لمن يوحد الله ، ولو لم يعمل ، وأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق ، غير فاهم معنى الجملة الأخيرة . في أمثال هذه الأساليب التي يقطعون عنها معانيها ، ويخدعون بها الناس عن أنفسهم وعن دينهم وعن ربهم ، يضافون عليهم لقب الإسلام ، ويسلبونهم العمل الصالح ، الذي اشترطه الكتاب الكريم لمن آمن بالله ، فلم يرد فيه إيمان غير مقرون بالعمل الصالح والإحسان .

هذه قضية ثالثة من القضايا التي يكاد ينفرد بها الإباضية منذ أول الإسلام ، وساروا فيها على المنهج الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وسار عليه أصحابه رضوان الله عليهم فلم يفرقوا بين القول والعمل ، ولم يجزئوا دين الله ، ولم يطعموا

المصاة المصرتين غير التائبين ، سواء كانت معصيتهم بالفعل أو الترك ، في رحمة الله .

والآن وقد انتفض المسلمون من مجتهم الطويلة ، ورجعوا إلى كتاب ربهم وهدى نبيهم وسيرة سلفهم ، يستأهونه التوجيه ، ويستوحونه الإرشاد ، ويلتمسون منه هداية الطريق ، عرفوا أن العمل ، هو الشرط الأساسى فى صحة العقيدة ، ولذلك فقد انطلقت الأقلام المباركة ، تدعو إلى الاستمسك بالعروة الوثقى من كتاب الله ، والتحلى بالخلق الأقوم الذى تحلى به محمد صلى الله عليه وسلم ، والاندفاع إلى ميدان الجهاد الدائم جهاد النفس ، فإن من لم يستطع أن يقهر الشيطان فى نفسه لا يستطيع أن يقهر العدو فى أرضه ، وما دام المسلمون منحرفين عن صراط الله السوى فإنهم لن يتأبدوا بنصر الله . فإذا فهم المسلمون الإسلام حق الفهم ، ورجعوا إلى العمل به أفراداً وأممًا ، شعوباً ودولاً ، وأسلموا أرواحهم وأسنتهم وجوارحهم لله ، فإن الله تعالى يشرح صدورهم للإسلام ، ويجعل لهم من كل ضيق فرجاً ، ومن كل مشكلة مخرجاً ، وبؤتهم العزة التى وعدم بها ؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . [ولا يزال مبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كتب سمه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها] .

الولاية والبراءة والوقوف

يقول قطب الأئمة في الشامل : « ولاية الجمله وبرامتها قريبتان بالكتاب والسنة والإجماع ، على كل مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة » ، وبعد مناقشة للموضوع قال : « وأما ولاية الأشخاص وبرامتها فواجبتان قياساً عليهما ، ولورود أحاديث في حب الإخوان في الله ، ومدح حبهم في القرآن » وبعد مناقشة للموضوع قال : « وقال غيرنا لا تجبان » .

لقد رأيت أن أبتدىء هذا الفصل ، بهذه الحقائق التي يقررها قطب الأئمة رحمه الله ورضي عنه ، وقطب الأئمة من المفكرين الأحرار القلائل ، الذين جاد بهم الزمن في هذا العصر الأخير ، وهو بالإضافة إلى أنه من أولئك الذين فتح الله بصائرهم لفهم أسرار التشريع الإسلامي ، وقذف في قلوبهم نور الحكمة والمعرفة ، وقوامهم على الكفاح في سبيل الله ، ويسر لهم خدمة دينه في عصور الانحطاط والظلام بالتحقيق ، وطبق عليها الأحكام المستمدة من الكتاب والسنة ، ورجح ما كان متارجحاً بين قولين وأقوال . وهو مع هذا العمل المتواصل ، والإنتاج الكتابي بما لم يبلغ إليه مؤلف فيما أعرف ، ومع قيامه بالتدريس وبالوعظ والإرشاد . إنه مع كل ذلك موسوعة علمية متنقلة في جميع فروع العلم ، وكان يعيش في عصره حياة حقيقية ، فقد كان مطلعاً على ما يجري في العالم من أحداث ، وتصل إليه جميع الحركات الثقافية ، والمطاعن التي توجه إلى الإسلام ، فيتصدى لها بالرد والنقد حسب قوتها أو ضعفها .

لست الآن بصدد الترجمة لهذا العلامة المحقق الذي كان صورة حية لصفات التي يجب أن يكون عليها المسلم ، الذي ربط أواصر قلبه بربه ، وترفع عن راحة

الدنيا ونعيمها رغبة فيما عند الله من نعيم ، ووقف نفسه للجهاد في سبيل الله ، يحارب دسائس الصهيونية والصليبية وعملاهما فيما يبتكره المستعمرون من أساليب ، ويرد كيد علماء الدنيا الذين يتزلفون أصحاب السلطان للحصول على منافع عاجلة ، ويحبط خداع النفعاء الجامدين ، وحيل مشائخ الطرق الذين يخدرون أعصاب الإرادة المسلمة لتستكين ، ويسمون أفكار الأمة المؤمنة بالبدع والخرافة لتستبين ، وعند ربك الخبر اليقين . . .

لقد رأى الإباضية ، أن محبة المؤمن الموفى بدينه ، الحريص على واجباته ، المبتعد عن المحارم ، المتخلق بأخلاق الإسلام ، المتبع لهدي محمد عليه السلام ، المقتنى لآثار السلف الصالحين ؛ رأى الإباضية أن المؤمن إذا كان على هذه الطريق ، وجبت محبته على المؤمنين ، وأعلنت ولايته بين المسلمين ، وطلبت له المغفرة والرحمة من رب العالمين .

وانظر أيها القارئ الكريم ، إلى مجتمع لا تجرى فيه المحبة والمودة والرحمة إلا بين أولئك المؤمنين الذين علقوا مصائرهم بيد الله ، ووهبوا أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، ولم يربطهم فيما بينهم إلا الأخوة في الله . فإذا نزغ أحدهم من الشيطان نزغ ، ولم يستعذ بالله فأقدم على المعصية ، ولم يسارع إلى التوبة ، انفصم هذا الرباط الذي يربطه بالمؤمنين ، وتحطمت هذه الأخوة التي قامت على الدين ، حتى يحدد إيمانه بربه ، ويستغفر الله من ذنبه ؛ ويصل حبال قلبه بفاطر السماوات والأرض .

فإذا فعل ذلك ، رجعت منزلته بين إخوانه كما كانت ، وعزت نفسه بينهم بعد أن هانت ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »

وقد رأى الإباضية أن هذا المسلم الذي يعلن بين الملأ قول لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، ثم يجترى على أوامر الله فيتخلى عن واجباته ، أو يقدم على ارتكاب

المحظورات ، أو يلتقى الله بغير المظهر الذى يظهره للناس ، أو يفضل على شئ من دين الله شيئاً مما يدعو إليه البشر ، أو يرتكس إلى التزلف لخلق - حتى أو ميت - فيرجو منه ما لا يرجوه المؤمن إلا من الله .

رأى الإباضية أن هذا المسلم الذى وصفناه بالإسلام ، وأدخلناه بين أهل التوحيد ، لا يحق أن يكرم بالتساوى مع الصادقين ، ولا يمكن أن تشمله المحبة فى الدين ، بل يجب أن نجد الغلظة من المؤمنين ، وأن نسمع التقريع والتوبيخ ، وأن يطلب الابتعاد عنه ، وأن نعان البراءة منه ، وبقلل التعامل معه . حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا نجد ملجأ من الله إلا إليه . فإما أن يشرح الله صدره للإسلام ، وأن يفتح قلبه للإيمان ، وأن يسخر أعضائه للعبادة ، وأن يباعد بينه وبين المعصية ، فيتوب مما ارتكب ، ويعود إلى حظيرة الإسلام ، بالعمل الصالح ، والجهاد المتواصل ؛ جهاد النفس والهوى ، فتربط أواصره حينئذ بأواصر الناس ، وبصبح بعد الهداية والتوفيق أخاً فى الله . وإما أن يرتكس إلى الشيطان ، وبصر على العصيان ، ويستكبر عن التوبة ، ويبتعد عن محاسبة النفس ، ويستمر فى الغواية والضلال ، وحينئذ لا يمكن لأولياء الله أن يحبوا عدو الله ، ولا أن يرضوا عن جاهره بالمعصية ، وإن القلوب المؤمنة ، لتستحى أن تتجه إلى المليك الدان . لتطلب منه الرحمة والغفران ، لعبيد الشهوات وأغوياء الشيطان ، « إنك لو نهدي من أهيبت ولكن الله يهدي من يشاء » ^(١) إن العصاة الذين يصرون على ما فعلوا ، ويجاهرون الله والناس بما ارتكبوا ، انفصلوا بكبريائهم عن ربهم ، وابتعدوا عن محبة إخوانهم ، وحادوا الله ورسوله « لا نجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » ^(٢) « إنه الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذنين » ^(٣) « هم الذين يحادون الله ورسوله كابت الذين منه قلوبهم » ^(٤)

(٢) المجادلة : ٢٢

(٤) المجادلة : ٥

(١) القصص ٥٦

(٣) المجادلة ٢٠

لقد كانت الصراحة والصدق والإيمان هي الصفات التي يتحلى بها المسلمون في الصدر الأول ، فلا تجد إلا مؤمنين يتنافسون في العمل الصالح ، أو منافقين أذهم الله بنفاقهم ، أو مسلمين قد تغلب على أحدهم لمة من الشيطان فيرتكب معصية يستخفى بها ، ويستتر بذنبه وهو كظيم ، فلا تبلغ به الوقاحة إلى أن يستحل ما حرم الله ، ولا أن يجاهر بمعصية الله ، ولا أن يصر على ما ارتكب من ذنب ، وهو يعلم أنه ذنب ، بل إنه ليحاسب نفسه الحساب العسير على ما ارتكب من إثم ، ويرجع إلى ربه وهو مشفق أن يعرض عنه مولاه ، ويتخلى عنه برحمته وينساه .

إن المجتمع الإسلامي أنظف من أن تقع فيه المعصية من مسلم ثم يسكتون عنه فيدعونهم محبواً قبل أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والتكفير ، إن كانت المعصية مما يتحلل منه بالتكفير . قيل لابن عمر : إن فلانا يقرئك السلام ، فقال رضى الله عنه : لقد بغنى أنه يقول بالقدر ، فإذا كان باقياً على شيء من ذلك ، فلا تبلغه عنى السلام . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من رأبنا منه خيراً ، وظننا فيه خيراً ، قلنا فيه خيراً وتوليناه ، ومن رأبنا مذئباً ، وظننا فيه مذئباً ، قلنا فيه شراً وتبرأنا منه ^(١) » وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » ^(٢)

هذه قضية رابعة من القضايا التي يكاد ينفرد بها الإباضية عن غيرهم من الفرق الإسلامية ، فلم يساؤوا بين مؤمن تقى وعاصٍ شقى في المعاملة ، وقالوا : يجب على المجتمع المسلم أن يعلن كلمة الحق في كل فرد من أفرادها ، وأن يتولى تهذيب الناشئين وتقويم المنحرفين ، وتربية الخطئين ، بالوسائل التي شرعها الإسلام للتربية الجماعية ، من أمر معروف ونهى عن منكر ، وإعراض عن يتولى عن الله .

وليس من الحق أبداً أن نتفاضى عن أولئك الذين يرتكبون المعاصي ،

(١) مقدمة التوحيد ٤٨ شرح أبي سليمان داود

(٢) مقدمة التوحيد ٩ من تعليق أبي إسحق .

ونضعهم في صف واحد مع المؤمنين الموفين ، بل يجب أن نزجر العاصي عن معصيته وأن نعالنه بالعداوة مادام منحرفاً عن سبيل الله ، وأن لا نساوى في المعاملة بينه وبين الموفى ، وأن لا نعطيه من المحبة وطلب المغفرة وحسن التعامل ما نعطيه للذى يراقب الله في الخفاء والعلانية ، ويرجع إليه في كل كبيرة وصغيرة ، ويقف عند حدوده التي رسمها لا يتخطاها « ولجهدوا فيكم غلظة » . « لا تجرد قوماً بؤسورهم بالله واليوم الآخر يوادونه من هاد الله ورسوله »^(١)

وبسرنى أن أختم هذا الفصل بهذه السطور الرائعة من كلام الأستاذ محمد الفزالي^(٢) :

« هل الدين إلا الحب والبغض ! . . إن الدين هو هذه العاطفة المشبوبة بمحبة الخير وأصحابه ، وكراهة الشر وأحزابه ، هو هذه العاطفة الدافقة المناسبة كالفيضان الموار ، لا تجد مستقرها إلا حيث تبلغ أهدافها ، لا يهمها أن تغر سفحاً ، أو تطوق قمة . . . إن الدين هو هذه العاطفة الحرة اليسيرة : اشمئزاز من مسالك الفسقة يقبض يدك عن مصاحبتهم ، ويجعل حمرة الغضب تصبغ وجهك لجرائتهم على ربهم ، فأما استطعت أن تخسف الأرض من تحتهم ، أو تقيم الدنيا وتقعدها حولهم . . . وإلا فإن أقعدك العجز سكنت سكون المقهور على ما يوسع من عار ، لا سكون البليد على ما وصل إليه من قرار . »

لقد شرح الأستاذ الفزالي في هذه السطور القليلة قاعدة الولاية والبراءة التي سار عليها الإباحية منذ فجر التاريخ .

والإباحية لا يخرجون العصاة من الملة ، ولا يحكمون عليهم بالشرك ، ولكن يوجبون البراءة منهم وبغضهم ، وإعلان ذلك لهم حتى يقلعوا عن معصيتهم ويتوبوا إلى ربهم .

(١) المجادلة : ٢٢

(٢) في ٨٠٠ كـ ١١٠ هـ : الطبعة الثانية ص ٨٥

كُفْرُ النعمة

يحسب كثير ممن لا علم له أن الإباضية يتفقون مع الخوارج في تكفير العصاة ككفر شرك ، ولا يعرفون أن الإباضية يطلقون كلمة الكفر على عصاة الموحدين ، الذين ينتهكون حرمة الله ، ويقصدون بذلك كفر النعمة ، أخذاً من الآيات الكريمة ، التي أطننتها في أمثال هذه المواضع ، واستناداً إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين »^(١) . « ليلوئى أأسكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربه غنى كريم »^(٢) . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظفرون »^(٣) سأل الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحج علينا كل عام يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : [لو قلت نعم لوجب ، ولو وجب لما قدرتم عليه ، ولو لم تفعلوا لكفرتم] . [من ترك الصلاة كفر] . [ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة] . [ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض] . [الرشا في الحكم كفر] .

وأمثال هذه الأحاديث كثير^(٤) حتى إن بعض رواة الحديث ييوب لهذا بقوله : « باب كفر دون كفر » . ويخفى على الناس فلا يصلون إلى الحقائق ، لأنهم

(١) سورة آل عمران آية ٩٧

(٢) سورة النمل آية ٤٠

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) جميع الأحاديث التي وردت في هذا الفصل وردت في صحيح الربيع .

لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث والإطلاع ، فهم حين يسمعون أن الإباضية يحكمون بكفر عصاة الموحدين يحسبون أن هذا الحكم إخراج للمسلمين من الدين ، وحكم عليهم بالشرك ، وهذا مذهب إليه الخوارج ، وإذن فالإباضية فرقة من الخوارج ! وهكذا يبنون نتائج على مقدمات مجهولة ، غير صحيحة ، فيتورطون في خطأ شنيع ، وينسبون إلى فرقة من أحرص فرق الإسلام على قول الحق واتباعه ومن أشدها تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، ينسبون إليها أقوالاً أو آراء هي أبعد عنها من الذين ينسبونها إليها .

ولو رجع هؤلاء إلى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلى سنة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى « إله هو إله وصى بوصى » ثم اطلعوا على كتب المذهب وناقشوها في أدلتها ومستنداتها ، وعرضوها على الميزان الذي وضعه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفهموا المعنى الذي يقصده الإباضية من كلمة الكفر حين تطلق على الموحدين ، إهم لوفعلوا ذلك لو فروا على أنفسهم وصحة الجهل ، وعلموا أن هؤلاء الناس يحاسبون أنفسهم على كل دقيق وجليل ، قبل أن يحاسبهم الناس ، وأنهم لا يقدمون على قول أو عمل ، إلا إذا انبنى على آية محكمة ، أو سنة متبعة .

واعتقد أن ما تقدم يكفي لإيضاح المقصود من إطلاق كلمة الكفر على العصاة ويقصد بذلك كفر النعمة ، والسبب الذي دعا الإباضية إلى إطلاقهم هذه الكلمة على العصاة بدلا من كلمة النفاق أو الفسوق أمران : أولهما : أنها الكلمة التي أطلقها الكتاب الكريم والسنة القويمة عليهم في كثير من المواضع والمنااسبات .

وثانيهما : أن لكلمة النفاق أثراً خاصاً في تاريخ الإسلام ، فقد اشتهر بها

عدد من الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آمنوا ظاهراً ولكن قلوبهم لم تطمئن بالإيمان ، فكان القرآن الكريم ينزل بتقريبهم ويفضح بعضهم ويتوعدهم ، بالعذاب الأليم ، في الدنيا والآخرة ، حتى اشتهروا بهذا الاسم ، وعرفوا به :

« المنافقون والمنافقات ، بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عنه المعروف ، ويبضونه أيديهم ، نسوا الله ففسدهم ، هذه المنافقين هم الفاسقون ^(١) » .
حتى صارت هذه الكلمة تشبه أن تكون علماً عليهم ، فإذا أطلقت انصرفت إليهم .

وقد أطلقت كلمة الكفر في الكتاب العزيز على المنافقين في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أطلقت على عصاة الموحدين ، ووردت بالمعنيين في الحديث النبوي ، ويقول علماء اللغة : إنها بهذا المعنى الذي يقصد به كفر النعمة إنما هي مشتقة من الكفران .

وقد أطلقها القرآن الكريم كثيراً بمعنى الشرك ، سواء كان الشرك شرك جحود أو شرك مساواة .

وخلاصة البحث أن الإباضية عندما يطلقون كلمة الكفر على أحد من أهل التوحيد فهم يقصدون كفر النعمة ، وهو ما يطلق عليه غيرهم كلمة الفسوق والعصيان ، والمعنى الذي يطلق عليه الإباضية كفر النعمة ، وبطاق عليه المعتزلة الفسوق وبطاق عليه غيرهم النفاق أو العصيان وهو معنى واحد .

وقد أطلقت الكلمات الثلاثة على المنافقين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

كما أطلقت على الذين يجاهرون الله بالمعصية ، فيخالفونه عن أمره .
والنقاش في هذا الموضوع نقاش لغوي ، والاختلاف لفظي ، والنتيجة أن من
يصر على معصية الله يلاقى نفس الجزاء الذي يلاقيه من يكفر بالله ، أما معاملة المسلمين
لمن يفسق عن أمر الله أو ينافق في دين الله ، أو يكفر بنعمة الله ، فإنها معاملة
للعاصي المنتهك الذي تجب محاولة إرشاده إلى وجوب الاستمساك بدينه ورجوعه
إلى أوامر ربه ، وإقلاعه عن محادة الله ورسوله ، فإن أمر واستكبر وتغلب عليه
الشیطان ، برىء منه ، ومن عمله ، وجافاه المسلمون ، على ما تقدم في فصل
الولاية والبراءة حتى يتوب .

مسالك الدين

يقول صاحب عقيدة التوحيد^(١) : « مسالك الدين أربعة : الظهور والدفاع والشراء والكتان » .

إن المجتمع الإسلامى إما أن يكون ظاهراً على أعدائه ، حرّاً فى أراضيه — مستقلاً بأحكامه ، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، منفذاً لأحكام الدين ، لا يخضع لأجنبي بوجه من الوجوه ، ولا يستبد به حاكم ، ولا يطفى عليه ذو سلطان . فهذه الحالة هى حالة الظهور ، وهى أكمل الحالات للمجتمع المسلم ، وعليها يجب أن تكون الأمة ، لأنها المنزلة التى ارتضاها الله للمؤمنين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . فإذا انحدر المسلمون عن هذا المقام ، وتضاءلوا عن هذا الشرف ، ونزلوا عن هذه المرتبة التى رفعهم إليها الإيمان بالله ، والثقة فيه ، فيجب أن لا يهادنوا الظلم ، وأن لا يستكينوا للظلميين ، وأن لا يسمحوا للأيدى العابثة ، أن تعيث بمقدرات الأمة ، فتنتهك حرمتهم ، وتحول دون أمور دينهم ، وتتحكم فى أعمالهم وعباداتهم ، وتتصرف فى أموالهم بغير التشريع الذى وضعه عالم الغيب والشهادة ، والهدى الذى تركه محمد صلى الله عليه وسلم لأبناء الإسلام .

إذا انحدرت الأمة إلى هذه الوهدة فتسيطر عليها عدو أجنبي ، أو تخلى — من أوائمه الأمة ثقته ، وأسلمته مقاليدها ، ووضعت بين يديه رعايتها -- عن الأمانة ، وحاد بها عن الطريق ، وخان الله ورسوله والمسلمين فيما وضع بين يديه ، وجب حينئذ أن يقف المسلمون فى طريق تلك الدولة الباغية ، يأمرونها بالمعروف ، وينهونها عن المنكر ، ويلزمونها أن تسلك بهم طريق الصواب ، فإذا اعتزت بالإثم ،

واستمرأت طم الغلم ، واستكبرت أن تخضع لأمر الله ، وأن ترجع إلى سبيل الله ،
فحينئذ يأتي القسم الثاني من التنظيم الإسلامي وهو الدفاع ، والدفاع في مسالك
الدين يرادف ما يعبر عنه في العصر الحاضر بالثورة . . . الثورة على الاستعمار
الأجنبي ، أو الثورة على الاستعمار الداخلي : كالثورة على الغلم ، والثورة على
الاقطاع ، والثورة على الفساد ، والثورة على الانحراف عن دين الله في كل مظاهره
وأشكاله . والزعيم الذي يقود هذه الثورة يسمى « إمام الدفاع » وله على الأمة
الثائرة حق الطاعة والامتثال ، مادامت الثورة قائمة ، فإذا استقرت الأمور ،
ورجعت إلى الهدوء والاستقرار ، أصبح واحداً من أفراد الأمة ، له حقوقهم ، وعليه
واجباتهم ، ورجوع الأمور إلى نصابها يكون بأحد أمرين ، إما نجاح الثورة ،
وإما فشلها ؛ ونجاحها يكون بأحد أمرين ، إما استجابة الدولة لمطالب الأمة ،
ورجوعها إلى أحكام الله ، وفي هذه الحالة ينتهي عمل الثورة إلى هذا الحد .
وإما الإطاعة بالنظام الفاسد ، وقلب الحكم الظالم ، وتغييره إلى نظام إسلامي ،
يتمشى مع التشريع الذي جاء به كتاب الله الكريم ، وعندئذ أيضاً لا يكون لزعيم
الثورة أو أمير الدفاع ، أى حق في الحكم ، إلا إذا اختارته الأمة ، لشروط توفرت
فيه بعد الهدوء والاجتماع والتفكير والمفاضلة ، حسب الشروط المتبعة في اختيار
أمير للمؤمنين .

فإذا ضعف المسلمون حتى عن هذا الموقف ، وأصبحوا لا يستجيبون لداعي
الثورة ، ويفضلون طريق السلامة ، ويركنون إلى الدعة والاستراحة ، جاء
المسلك الثالث من مسالك الدين ، وهو الشراء ، فحق لقلّة منهم إذا بلنوا
أربعين شخصاً أن يطلبوا الثورة على الفساد ، وبما أن هذه الثورة التي يقوم
بها عدد قليل لا يتوقع لها النجاح في كفاحها ضد دولة ظالمة مسلحة ، وأمة
مسيئة راضية بالذل ، إن هذا التنظيم يشبه أن يكون شغباً على دولة ظالمة حتى
لا نطمئن إلى تنفيذ خططها الجائرة . وقد لا نكون لها نتائج غير هذا القلق الذي

ينجم على الظالمين ، والتوجس والخوف الذى يسود أعمالهم وحركاتهم ، ولذلك فقد اشترط لهذا التنظيم ، شروط قاسية لا يقبلها إلا الفدائيون ، الذين وهبوا حياتهم لحياة الأمة ، وذلك أنه لا يحل لهم بعد أن يفخرطوا فى هذه المؤسسة ، أن يعودوا إلى بلادهم ، أو يستقروا فى أمكنتهم ، أو يتخلوا عن رسالتهم ، حتى ينتهى بهم الأمر إلى النجاح أو القتل ، والقتل أقرب الأمرين إليهم ، وعندما تضطر الظروف أحدهم إلى منزله لشأن من شؤون تمديد الثورة ، كالتزود ، فإنه يعتبر فى منزله غريباً مسافراً يقصر الصلاة ! ولكنه عندما يكون فى شفق الجبال ، أو بطون الأودية ، يقطع المواصلات على الطغاة ، أو يهدم الجسور التى تمر بها القطر الظلمة ، أو يقتلع أسس القلاع التى تجمع ذخيرة الجبابرة ، حينئذ يعتبر فى منزله وبين أهله ، وهم فى كل ذلك لا يحل لهم أن يروّعوا الأمنين ، أو أن يسيثوا إلى المسالمين . إنه تنظيم رائع للفدائية فى الإسلام عندما تحكم الظلم ، وبستلى عبيد الشيطان ، وتعطل أحكام الله بأحكام الإنسان ، يقول أبو إسحاق « الشراء من أخص أوصاف الإباضية » .

فإذا رضيت الأمة بالذل ، واستسلمت للأنل ، وجرى عليها حكم الطغاة ، ولم يبق فيها من يثور لكرامة الإسلام المهددة ، ولا لشرف الرسالة التى أعزت الإنسانية . وتغلب حب الدعة على كل فرد ، وركن الجميع إلى الراحة ، فلم تتكون حتى الفدائية التى تقض مضاجع الظالمين ، وتذكّرهم أن حكمهم لن يقر ، وأن كراسيهم لن تستقر ، وأن المقاومة لا تزال هى أمل المؤمنين ، وأنهم سوف يحاسبون أمام الله والأمة حساباً عسيراً .

إذا ضعفت الأمة حتى عن هذه المرتبة ، أصبحت تحت التنظيم الأخير ، تنظيم الكتمان . وعندئذ يجب أن يبتعد المؤمنون عن مساعدة الظالمين

بتولى الوظائف الظلمة ، وأن تتولى شؤونهم جمعيات تبث فيهم هداية الله ، وتملأ قلوبهم بالإيمان بالله ، وتنشر فيهم المعرفة والثقافة الإسلامية التي تبصرهم بدين الله ، فلا تكون علاقتهم بالظالمين إلا في أيسر طريق ، وأضيق مجال ، فيما يتعلق بحماية الأموال المفروضة عليهم للحاكمين . وهى الجمعيات ، أو ما يسمى في التنظيم الإباحي « بحلقة العزابة » .

العزابة

تعريف العزابة : العزابة هيئة محدودة العدد ، تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا . وهذه الهيئة تقوم بالإشراف الكامل على شئون المجتمع الإباضي ؛ الشئون الدينية ، والشئون التعليمية ، والشئون الاجتماعية ، والشئون السياسية . وهي في زمن الظهور والدفاع تمثل مجلس الشورى للإمام أو عامله ومن ينوب عنه ، أما في زمنى الشراء أو السكتان فهي تمثل الإمام وتقوم بعمله .

تختار هيئة العزابة من بينها شيخاً يسمى « شيخ العزابة » يكون أعلمهم وأكبرهم كفاءة ، ولا يشترط فيه أن يكون أكبرهم سناً ، والشيخ يرأس الهيئة في جلساتها ، ويمثلها في جميع أعمالها ، ويتكلم باسمها ، وينفذ قراراتها ، ويتولى الإشراف المباشر على جميع شؤون البلاد أو الأمة ، ويجب أن تعرض عليه جميع المشاكل والأحداث ، وحكمه بعد قرار الهيئة نافذ في جميع الأحكام .

اشتقاق كلمة العزابة : اشتقت هذه الكلمة من العزوب أو العزابة ، وهي تعنى العزلة ، والغربة ، والتمسك ، والتهجد ، والانقطاع في رؤس الجبال ، ويقصد بها في هذا الاستعمال الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة ، والإعراض عن حظوظ النفس ، والبعد عن مشاغل الحياة ، من أهل ومال وولد ، فإن العزابي لا يعطى لهؤلاء من جهده ووقته إلا القليل ، أما أعظم طاقاته فيجب أن يصرفها لله في خدمة المسلمين ، دون مقابل يتقاضاه على عمله . أو أجر يرجوه منهم ، لأن أجره وحسابه على الله .

معنى كلمة الحَلَقَة : كلمة الحلقة استعمال ثان يقصد به هيئة العزابة ، فهي مرادفة لها . وقد أخذت هذه الكلمة من التحليق ، وهو الاستدارة ، وذلك

أن العزابة في اجتماعاتهم الرسمية يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة ، وهو أنسب وضع لتبادل الآراء ، ودراسة وجهات النظر المختلفة .

كما أن الجلوس على هذا الوضع أفضل حال عند الدراسة ، أو تلاوة القرآن الكريم ، والاتجاه إلى الله بالدعاء .

مقر العزابة : المقر الرسمي للعزابة يكون في المسجد ، ولذلك فلزام أن يكون في جانب من جوانب المسجد بيت خاص بالعزابة ، ويستحسن أن يكون بعيداً عن مجالس الناس ، حتى لا تسمع المداولات التي تجري فيه ، وهذا البيت الخاص بهم لا يجوز لغيرهم الدخول إليه مطلقاً ، ويتحتم على الجدد منهم أن يقوموا بتنظيفه ومراقبته وفرشه وملاحظة جميع ما يلزمه ، وفيه تحفظ وثائقهم فلا يطلع عليها أحد غيرهم . وجميع المداولات والمناقشات والمباحث التي تجري داخله تعتبر سرية ، لا يجوز إخراجها وإفشاؤها لأي سبب من الأسباب ، ما عدا القرارات التي تتخذ للتنفيذ فيتولى الشيخ إعلانها ، وقد ينوب عنه أحد الأعضاء الآخرين ؛ ولا يجوز للعزابة أن يناقشوا أى موضوع في غير مقرهم الرسمي ، وبعد أن ينتهوا إلى قرار في أى موضوع يحق لهم أن ينتقلوا إلى مكان آخر لتنفيذ ذلك القرار ، إذا كان تنفيذه يقتضى منهم الانتقال ، وإذا أصدروا أمراً في شأن من الشؤون الاجتماعية للبلاد ، كتحديد المهور ، أو تحديد الأسعار ، أو بدء العمل في المواسم الزراعية ، أو ما شاكل ذلك ، فلم يستجب الجمهور لقراراتهم اعتصموا في مقرهم ، ولزموا المسجد دون أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، وامتنعوا من دخول الأسواق والبلد ، حتى يستجيب الناس للحكم ، ويقوموا بتنفيذ الأمر ، ولم تحدث مثل هذه الحالة عند الإباضية في ليبيا ، إلا عدداً قليلاً من المرات ، استجاب فيها الناس لأمر العزابة بأسرع ما يمكن ، بل لقد كان الناس يسارعون حين يسمعون بمثل هذا الموقف من العزابة ، فيقفون بعضهم ،

ويبلغون موافقتهم إلى المجلس قبل حضور وقت الصلاة الثانية ، فنشير الأمور في معتادها .

عدد أعضاء اللجنة : يتراوح عدد أعضاء الحلقة بين عشرة أعضاء وستة عشر عضواً ، يوزع عليهم العمل كما يأتي : —

١ — شيخ العزابة : وبكرن أعلم القوم ، وأقوام شخصية ، وأقدرهم على حل المشاكل .

٢ — المستشارون : ويكون عددهم أربعة لا يزيدون ولا ينقصون ، ولزمون الشيخ ، ولا يقطع أمراً دون موافقتهم .

٣ — الإمام : شخص واحد ، يقوم بصلاة الجماعة ، ويجوز أن يكون أحد الأربعة المستشارين .

٤ — المؤذن : وهو شخص واحد مسئول عن تحرى أوقات الصلاة ، والقيام بمهمة الأذان ، وبصح أن يكون أحد الأربعة المستشارين .

٥ — وكلاء الأوقاف : يخصص عضوان للإشراف على الأوقاف ، وعلى ميزانية الحلقة . وضبط الواردات والصادرات . وطريقة إصلاح وتنمية الأوقاف ، ويشترط في هذين العضوين بالإضافة إلى الشروط العامة لأعضاء الحلقة ، أن لا يكونا من الأغنياء المكثرين ، ولا من الفقراء المعوزين ، وسكن من متوسطي الحال المستورين .

٦ — المعلمون : يخصص ثلاثة أعضاء أو أكثر أو أقل حسب الحاجة ، للإشراف على التربية والتعليم . وتنظيم الدراسة . ومراقبة التلاميذ في المحاضر . وهي دور التعليم . أو في الأقسام الداخلية . وما إلى ذلك من شئون التعليم .

٧ — حقوق الموتى : يخصص أربعة أعضاء أو خمسة للإشراف على حقوق

الموتى ، فيتولون الإشراف على غسلهم ، وتجهيزهم ، والصلاة عليهم ، ودفنهم ، ومراقبة تنفيذ وصاياهم ، وتقسم تركاتهم حسب الفرائض فى أحكام الإسلام .

وإذا توفى شخص وهو فى براءة المسلمين بأن مات على معصية ، فإن هؤلاء العزابة لا يقومون بحقوقه ، لأن العاصى لا حق له على المؤمنين ، ولكنهم يسمحون لمن شاء من غير أعضاء الحلقة أن يقوم بتلك الحقوق ، ذلك أن القيام بأمور الميت فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض أجزى عن الباقين .

شروط العضوية : يشترط فى أعضاء العزابة عدة شروط منها :

- ١ — أن يكون حافظا لكتاب الله .
- ٢ — أن يمر بمراحل الدراسة مرحلة مرحلة ، ويستوفى الدراسة فيها .
- ٣ — أن يكون محافظا على الزى الرسمى للطلبة عندما كان فى الدراسة ، وللزى الرسمى للعزابة عندما يدخل الحلقة .
- ٤ — أن يكون أدبيا كدسا فطنا ، ذا لباقة ومهارة فى تصريف الأمور .
- ٥ — أن يكون محبا للدراسة راغبا فيها ، مواصلا للتعلم والتعليم .
- ٦ — أن لا تكون له مشاغل دنيوية كثيرة تحمله على كثرة التردد على الأسواق ، والاختلاط بالعامة والسوقة ، اختلاطا يزرى بمقامه ، ويذهب بهيبته .
- ٧ — أن يغسل جسده بماء ، ويغسل قلبه بماء وسدر ، وهذه عبارة اصطلاحية ، يقصد منها أن يكون الإنسان نظيف اليد ، والبطن ، والعين من أهوال الناس ، وأن يكون نظيف القلب من جميع أمراض القلوب ، أى أن يكون طاهر الباطن والظاهر .

وقد شرح أبو عمار عبد الكافي هذه العبارة . بقوله : « أما الجسد فيفسله من الدنس في الناس ، وأما القلب فيفسله من الفس والتكبر وما أشبه ذلك مما يوجب حبط العمل » والعبارة كما ترى في غاية الدقة ، وهي تحتمل أكثر مما أشرت إليه وأشار إليه العلامة أبو عمار ، فتأملها ، فكلما تأملتها وجدت فيها معنى جديداً . . .

واقعد شدد المشايخ في تنظيف المؤمن لقلبه ، لأن أدران القلوب أشد قذارة من أدران الأبدان ، ولذلك أوجبوا عليه أن يغسل جسده بالماء ، وأن يغسل قلبه بماء وسدر ، وهي كناية تفيد الحرص الشديد على نظافة الباطن أكثر من نظافة الظاهر ، فإن من طهرت سريرته حسنت سيرته ، واستقامت أموره ، وكثرت محابته لنفسه ، ورعايته لسلوكه ، وفي ذلك النجاح .

واجبات الحلقة : على هيئة العزابة واجبات أكيدة هي مسئلة عنها باعتبارها هيئة ، وتتخلص هذه الواجبات فيما يلي :

١ — الإشراف على التلميم وتهيئة الوسائل لذلك ، وتيسير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطاً من الدراسة ، ويتعلموا جزءاً من القرآن الكريم وما يعرفون به أمور دينهم . وهذا أقل ما يمكن أن يتاح للأطفال ، فإذا كانت أسرة الطفل فقيرة بحيث لا تستغنى عن مجهوده الضعيف ، أو ليس لها ما تمونه به أوقات الدراسة وجب أن تقدم له مساعدة ، وذلك بالإئفاق عليه .

٢ — مراعاة الحالة الاجتماعية للناس ، وتيسير سبل الحياة للفقير والضعيف ، وإيجاد العمل للجميع ، وذلك بمطالبة الأغنياء وأصحاب اليسار أن يستعينوا بالفقراء في إنجاز أعمالهم مقابل أجور ، كثيراً ما يعينها أعضاء العزابة .

٣ — حل المشاكل التي تنجم بين الناس ، والفصل في قضاياهم ، والحكم بينهم في خصوصاتهم ، وإيصال الحقوق إلى أصحابها .

٤ — الإشراف على أوقاف المساجد ، وعلى ميزانية الحلقة أو ضبط المصادر والوارد ، وإنفاق جميع ذلك في وجوهه ، والعمل على تنمية الأوقاف الثابتة ، وإصلاحها ، واستغلالها أحسن استغلال .

٥ — حفظ الأسواق ومراقبتها من أن تقع فيها معاملات لا يبيحها الشرع ، أو أن ترد إليها أموال مسترابة أو مشبوهة .

٦ — تنظيم الحراسة البلدية على أموال الناس من زراعة وماشية حتى لا تصل إليها أيدي الغارة والسرقة والإضرار .

٧ — الحكم على العصاة والمجرمين وتأديبهم ، وإعلان البراءة منهم ، وقطع التعامل معهم حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الله .

٨ — القيام بالعلاقات الخارجية وتنظيمها ، سواء كانت علاقات حرب أو سلام .

هذه بعض المهام التي تناط بمجلس العزابة باعتبارها هيئة مسئولة عن المجتمع أمام الله وأمام الناس ، وعلى الهيئة أن توزع الأعمال على الأعضاء حسب الكفاءة والمقدرة ، والذي يقوم بذلك إنما هو الشيخ بعد اتفاق الحلقة .

أين تنشأ حاق العزابة : تنشأ حلق العزابة في كل بلد أو قرية ، وحلقة العزابة هم الذين يشرفون على أمور البلد أو القرية الخاصة ، فإذا كان هنالك أمر هام ، أو حدث أكبر من مستوى القرية أو البلد رفع إلى المجلس الأعلى للعزابة الذي يرأسه الشيخ الأكبر ، أو حاكم الجبل حسبما كان في جبل نفوسة ، وذلك كمسائل إيقاع الحدود ، وما يتعلق بالأمن العام ، وما إلى ذلك من المشاكل

التي تكون أكبر من المستوى المحلى للقرية ، والهيئة الكبرى للعرابة أو الهيئة العامة لهم هي الهيئة التي يرأسها الشيخ الأكبر ، ولا بد أن يكون شيخا للعرابة في بلده ويقوم مقام الإمام في أزمنة السكتان ، أما أعضاء العرابة الذين يكونون معه فهم المستشارون ، ويكونون من شيوخ حلق العرابة في بلدانهم . ومقرهم هو مركز البلاد وعاصمتها ، ولهم مع الشيخ اجتماعات دورية ، مرة في كل ثلاثة أشهر ، ومتى دعت الحاجة . وأحكام هذا المجلس نافذة على جميع البلاد ، وكل الحلق خاضع مادياً وأدبياً لهذا المجلس ، ويعتبر السلطة الحقيقية للمجتمع الإباضى ، أما بقية الحلق فهي مساعدة له ، منفذة لأعماله ، ويجب على الشيخ الأكبر للعرابة أن يكون مقر حكمه في مركز البلاد ، فاذا اختار السكن في غير ذلك المكان فعليه أن يباشر الأحكام في مركز الحكم لا في محل السكن كما كان يفعل أبو هارون موسى بن هارون ، وأبو عبد الله بن جلداسن اللالوتى ، وأبو يحيى الأرجانى ، وغيرهم .

إن شيخ العرابة في المجتمع الإباضى يمثل سلطة الإمام العادل ، ويقوم بجميع مهامه في النطاق الذى تسمح به ظروف الحياة في زمن كل واحد منهم . وهو مقيد بمجلس الشورى الذى لا يحق له أن يصدر رأياً قبل موافقته ، اللهم إلا في الأحكام الثابتة في الدين الإسلامى . وله أن يستعين بشخص يقوم له مقام المفتى . والقصد من هذا المفتى هو تحرير نصوص الحكم المستمدة من الشرع الشريف . أو المساعدة على ترجيح الأقوان في المسائل الخلافية التى تعتمد فيها وجهات أنظار الفقهاء . وليس المقصود من وجود المفتى أن يبصر الشيخ بأحكام لا يعرفها . لأن شيخ العرابة يشترط فيه أن يكون من أعلم المشايخ ، إذا لم يكن أعلمهم .

وفي الاجتماعات الدورية التى تعقد في ثلاثة أشهر . أو في ستة أشهر . يحضر

ممثلون عن جميع حلق العزابة . ويستعرضون ما لديهم من مشا كل ، ويدرسون معا وضع المجتمع . ويتخذون في ذلك القرارات اللازمة . ويرسمون خطط السير في المستقبل ، على أنه يحق لكل حلقة أن تتصل بالمجلس الأعلى . وتدعوه للانفقاد إذا كانت هنالك أسباب تدعو إلى ذلك . كما أن لها الحق أن تعرض مشاكلها الخاصة على الشيخ الأكبر ، وتقتبس منه الرأي والنصيحة .

ويمثل كل حلقة من حلق العزابة شيخها وبعض مستشاريه ، إلا في أحوال الضرورة التي يتمذر فيها عليه أن يقوم بهذه المهمة .

اختيار أعضاء الحلقة : يراعى في اختيار العزابه بالإضافة إلى الشروط التي يجب أن تتوفر في كل شخص أن يكونوا ممثلين للقبائل أو الجماعات التي يشتمل عليها البلد ، ولا يشترط تساوى العدد ، كما أنه إذا لم يوجد في قبيلة ما من تتوفر فيه الشروط الشخصية أخذ من غيرها ، وعندما يحتاج العزابة إلى إضافة عضو جديد إلى الحلقة يأخذونه عن أحد طريقتين :

إما أن يطلبوا من القبيلة التي يراد أخذ العضو منها أن ترشح عدداً ممن تتوفر فيهم شروط العضوية ، والكفاءات المطلوبة مع الشهرة بالصلاح ، والتقوى ، والعفاف ، والنزاهة ، وحب الخير ، والإيثار ، والتضحية ، والعمل للصالح العام ، فتختار الهيئة واحداً منهم : وإما أن يطلبوا إلى منظمة «إيروان» أن يقدّموا إليهم واحداً ممن يملأ ذلك الفراغ .

حين يتعين العضو لأن يشغل مركزاً في العزابة، يدعى إلى مقرم الرسمى ، ويتولى الشيخ تعريف بالسيرة التي يجب عليه أن يسيرها ، وبالأدب الذي يلتزمه ويؤكد عليه أن يعرف أن من أوكد الواجبات عليه أن يحافظ على آداب الإسلام ، ويتخلق بأخلاقه الحميدة ، من الاستقامة والنزاهة ، والعفة ، والانقطاع إلى خدمة

الأمة ، والتزام المسجد ، والإعراض عن حظوظ الدنيا إلا بمقدار الضرورة ، والاجتهاد في العبادة ، والتواضع للمؤمنين ، والغلظة على العصاة والجرمين ، وأن يكون قدوة حسنة للناس في قوله وفي عمله ، وأن يتحرى في رزقه التحرى الكامل ، ويختار له أن يكون مجال احترافه الزراعة ، لأن التجارة تسبب له احتكاكا مباشراً بالناس ، فيغلب أن لا يسلم منها بالحق أو بالباطل ، وهم بلخصون هذا الموقف في عبارة مشهورة متداولة هي : —

« أن لا يكون في غير مسجده ، أو حقله أو بيته » ، وبعد أن يعرف بجميع ما يترتب عليه من حقوق وواجبات ، وما يلحق عليه من مهام ومسئوليات ، يطلب إليه أن يعلن عن قبوله أو رفضه ، فإذا أعلن قبوله -- وهذا ما يحدث فعلاً -- أسندت إليه المهام العملية ، كأن يقوم بالتدريس أو وكالة المسجد ، أو الاشتراك في الإشراف على حقوق الموتى ، ثم أعلم أنه يعتبر أصغر العزابة . ولو كان أكبر من بعضهم سنًا ، وعاليه أن يتولى خدمتهم ، ويطلب إلى سلفه — أى العزابي الذى كان أصغرهم قبل هذا العضو الجديد — أن يبقى معه ثلاثة أيام ، يدربه فيها على آداب خدمة العزابة ، لأنه يعتبر رئيسه المباشر ، وعند ما يجلس العزابة يتحتم أن يكون مجلسه بعده . وترتيب مجالس العزابة ضرورى ، فلا يجوز للمتأخر أن يسبق المتقدم ، والعزابي يعتبر رئيساً في أى مكان يوجد فيه ، وله وحده حق افتتاح الكلام في المجالس العامة ، وكذلك اختتامه ، وإدارة المناقشات ، وما إلى ذلك ، فلا يجوز لتلميذ أو عامى أن يتولى شيئاً من ذلك إلا بإذنه .

عقوبة العزابي :

المطلوب من العزابي أن يكون قدوة ومثلاً للاستقامة ، ولذلك فإن ما يعتبر

من غيره أخطاء — فيرة يعتبر منه أخطاء كبيرة يجب عليه الاحتراس منها ،
والابتعاد عنها ؛ وهذا حتى في مكارم الأخلاق ، ومعاملة الناس ، فإذا قدر عليه
فأخطأ ، نظر مجلس العزابة في موضوعه :

فإن كان الخطأ كبيراً يتصل بمعصية الله ، ويسىء إلى سمعة العزابة ، أو يلحق
إهانة بالمسجد ، أو استخفافاً بالحق ، أو ما أشبه ذلك ، وجب عليهم أن يحكموا
عليه بالبراءة على الأَشهاد ، كما يقع بالنسبة لغيره من الناس ، ولا يرفع عنه حكم
البراءة حتى يتوب علناً ، وليس له بعد ذلك حق الرجوع إلى مجلس العزابة أبداً ،
فإن من أخرج من هذا المجلس بطريق البراءة لا يحق له دخوله مرة ثانية ، وإن
تاب ونصحت توبته ، ويبقى كسائر المسلمين له حقوقهم وعليه واجباتهم .

أما إذا كان الخطأ صغيراً لا يقتضى التوبة ، فإنهم يعقدون له مجلس تأديب
سرى ، وقد يحكمون عليه بالإبعاد عن مجلس العزابة لمدة طويلة أو قصيرة حسب
الخطأ الذى ارتكبه ، وسترُوا عليه ذلك عن الناس .

وسبب هذا الحكم كان العزابة من أشد المحافظين على الإسلام وآدابه ، وقد
لخص أحد المشائخ هذه السيرة في عبارة لطيفة فقال : « إن مُتَوَلَّى الناس مثل
البن يغيره أى شئ يقع عليه » .

كيف تكون نظام العزابة :

في أواخر القرن الثالث الهجرى وقعت حادثتان كبيرتان ، وكان لهما أثر
كبير على الإباضية ، في ليبيا وتونس والجزائر :

الأولى الحرب الطاحنة بين الأغابة والإباضية في قصر مانو ، وقد تلى فيها
الإباضية ضربة عنيفة من يد الطاغية أحمد بن الأغلب .

أما الثانية فهي تغلب الشيعة على الدولة الرسمية في الجزائر، وقضائهم على هذه الدولة .

وإذا كانت كلتا الدولتين الأغلبية والشيوعية لا تتبعان أحكام الإسلام ، ولا تعملان بها ، فقد فكر علماء الإباضية في جعل نظام يسرون عليه ، يحفظون به أحكام الله في مواطنهم ، ويسـيرون به الأمة في الوجهه الصالحة ، دون أن يلتجئوا إلى إعلان دولة جديدة ، أو يتعلقوا بدولة ظالمة مستبدة .

فاهتدوا إلى وضع هذا النظام، وقد كان في أول الأمر عُرفاً يسير عليه الناس، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر في أواخر القرن الرابع ، فحرره على شكل قانون يشتمل على مواد ، ثم طبقه تطبيقاً كاملاً في مواطن الإباضية ، في ليبيا ، ثم في تونس ، ثم في الجزائر ، حيث لا يزال يطبق بدقة ؛ وعلى هذا الأساس اعتبر المؤرخون أن الإمام أبا عبد الله هو واضع نظام العزابة ، والحق أنه يعتبر واضعاً لهذا النظام ؛ فلولاه لما وصل إلينا على تلك الطريقة المنسقة ، وقد جاء بعد أبي عبد الله عدد من العلماء الكبار عُنوا بدراسة هذا النظام عناية خاصة ، وأضافوا إليه بعض المواد ، وأطلق عليه بعضهم لفظ « سيرة العزابة » ، ومن العلماء الذين عُنوا به ، وكتبوا عنه : أبوزكرياء يحيى بن بكر ، وأبو عمار عبد الكافي ، وأبو الربيع سليمان بن يخلف اللزاني ، وقد حرص المتأخرون منهم أن يضيفوا إليه جملاً في آداب العالم والمتعلم . وآداب حلقة العزابة وما يجب أن تنزه عنه .

والذي يدرس هذا النظام كما شرحه أولئك الأئمة الأعلام يخرج بقانون فذ لنظم التربية والتعليم من جهة ، وللسيرة الصالحة التي يجب أن يسير عليها المسلمون ، فتحفظ عليهم خلقهم ودينهم ، عندما تسيطر عليهم دول البنى والعدوان .

كما كان ذلك عند الإباضية في الجزائر ، رغم ما بذلته فرنسا المستعمرة
الظالمة الباغية ...

قوة العزابة :

استطاع العزابة أن يحتفظوا بهذا النظام طيلة قرون طويلة ، وأن يعملوا به
وأن يطبقوا بمقتضاه الأحكام على جميع الأفراد ، دون أن يشذ منهم شاذ ، أو
يتكبر عليهم متكبر .

فما هو السر الذي منحهم هذه القوة وأسلس إليهم قياد الناس ، فكانوا
يتقبلون أحكامهم ويستجيبون لأوامرهم ، لا يحدثون شغباً ، ولا يظهرن تمرداً...
إن لذلك سببين هامين :

الأول : الشخصية القوية التي تتمتع بها هيئة العزابة بسبب الصفحات
المنالية التي تتصف بها الحلقة كهيئة ، وأعضاء العزابة كأفراد ، فإن المؤمن عندما
يلتزم آداب الإسلام ، ويسير بهديه ، ويسير السيرة الرضية ، يكون موضع
الإحترام والتقدير والطاعة من جميع الناس ، وتسلس له أزمه القيادة ، إذا تولى
ذلك في مجتمع أو أمة .

الثاني : حكم الولاية والبراءة الشخصيتين : هذه القاعدة الهامة التي يختص
بها الإباضية دون غيرهم من المذاهب فيما أعرف . وكلمة الولاية تعنى الحب في الله ،
وكلمة البراءة تعنى البغض في الله . والولاية حق لكل مسلم مستقيم عرفت فيه
التقوى والوقوف عند حدود الله ، أما البراءة فواجب على كل مؤمن أن يعلن
براءته وبغضه للمصاة والمجرمين . حتى يتوبوا إلى الله .

ولما كانت هيئة العزابة هي المسئولة عن تنفيذ أحكام الله ، فإن من واجباتها
عندما يثبت لديها انحراف عن دين الله في أى شخص . أن تعلن عليه حكم البراءة

وعند ما يعلن حكم البراءة على شخص ، سرعان ما يتبدل وجه الحياة لديه ،
فيمقد ما كان يحده من حسن المعاملة ، وإشراق الحب في الله ، ويتجافى عنه الأصدقاء ،
ويتجافى عنه الأهل والأقارب ، ويقطع الناس معاملته إلا بالمقدار الضروري جداً ،
فيجد نفسه معزولاً عن المجتمع ، لا حق له في الحياة الكريمة ، ولذلك يضطر
إلى التوبة والاستغفار والندم علناً ، وفي المسجد ، فإذا تكبد مجلس العزابة أن
الرجل صادق في توبته ، نادم على خطيئته ، راجع إلى ربه ، أعلنوا رفع
البراءة عنه .

وعندئذ ترجع إليه جميع الحقوق . ويستمتع بكل ما كان يستمتع به قبل
أن يغره الشيطان ، وليس من حق أحد بعد التوبة أن يذكره بمعصيته ،
أو يعيره بماضيه .

منظمة إيروان :

« إيروان » كلمة بربرية معناها طلبة العلم الذين حفظوا القرآن الكريم ،
فهم لا بد أن يكونوا من حملة كتاب الله ، ومن المشتغلين بالدراسة ، وهي جمع ،
والواحد منها (إرو) أما بفتح الهمزة (أرو) فهو اسم يطلق على الحيوان
المعروف بالظربان في اللغة العربية ، وأما « آر » بفتح الهمزة ومدّها وسكون الراء
فعناه الأسد ، وفي لهجة صنهاجة البربرية معناها هات أو اعطيني .

هذه المنظمة هي القوة الثانية في البلد بعد العزابة ، ولها نظم وتقاليد وحقوق
خاصة بها ، وهي كالمجلس الاستشاري المساعد للعزابة ، أو كمجلس النواب
بالنسبة للشيوخ ، وكثيراً ما يسند العزابة أعمالاً إلى مجلس « إيروان » .

وسوف أشرح الجانب العلمى منه فى فصل آت من هذا الكتاب « نظم
التربية والتعليم » فليراجعه من شاء هنالك .

هذا ملخص يسير مختصر عن نظام المزابة الذى بقى يسير به الإباضية فى
المغرب الإسلامى مدة طويلة .

وقد ارتفع حكم المزابة من مواطن الإباضية، فى ليبيا وتونس فى القرن الأخير،
ومنذ ارتفع نظام المزابة فى هذه المواطن تسرب الفساد إلى المجتمع ، ولن يستطيع
الإباضية أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من دين وخلق واستقامة ما لم يعودوا إلى
الاستمسك بدين الله واللياذ به ، وإن المسلمين جميعاً ما أصيبوا بما أصيبوا به
إلا لأنحرفهم عن دين الله ، وخروجهم عن منهاجه .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

صيانة لكرامة المرأة

لقد كانت طبيعة الحياة في الأمة للسلمة لا تبيح للمرأة أن تختلج برجل أجنبي عنها ، ولا تبيح لرجل أن يختلج بامرأة أجنبية عنه . وذلك خوفاً من الفتنة ؛ لأن الدوافع الجنسية قد تتغلب على النفس عند الرجل أو عند المرأة وهما مختليان ، فيصلا إلى المحذور ، ويقع السوء الذي منه يحذران ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : « إياكم والخلو بالثماء ، والذي نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » . وفي رواية : « دخل الشيطان بينهما » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم ^(١) » .

ولكن واقع الحياة كثيراً ما يجعل المرأة في طريق الرجل ، أو الرجل في طريق المرأة بضرورة من الضرورات ، فيلمب الشيطان بينهما دوره ، ويحاول أن يخدعهما عن نفسيهما ، ويمهد لهما سبيل اللقاء الأول ، ويبسط لهما وسائل العذر لارتكاب الفاحشة ، فيمنيهما بأن يربط بينهما عرى الزواج في المستقبل ، فيعد الرجل المرأة بالزواج ، ويفريها بالأحلام الضاحكة ، من تكوين المش والأسرة ، والهناء المنزلى القار ، حتى تطمئن إليه ، ويخيل إليها أنها ستبدأ مكانها الجديد ، وأنها قربت من تحقيق الحلم المذنب ، فتسلم إليه نفسها ، وتتم لعبة الشيطان قبل أن يتم الزواج .

وأمثال هذه الحالة موجود وكثير ، وفي أغلب الأحيان لا يكون الرجل

(١) رواه الإمام أحمد بلفظ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم فان ثالثهما الشيطان » .

جاداً في وعده للفتاة بالزواج ، وقد يكون جاداً ، ولكن ظروفًا أخرى لا يملك السيطرة عليها تحول دون ذلك الزواج ، وينتج عن ذلك خسران في الدين ، وفضيحة في المجتمع ، وضياح لفتاة يمكن أن يصاب شرفها بشيء من الحكمة .
وتعالج بعض المذاهب الإسلامية هذه المشكلة بفرض إتمام الزواج بين الفتى العايب والفتاة المخلوعة .

وفي هذا العصر الذي انطلقت فيه الفتاة — دون رعاية أحد — في معترك الحياة ، ودعتها أساليب المدنية الغربية أن تتعرف على الرجل ، وأن تعيش معه ، وأن تختبر أخلاقه ، لتضطاد منه زوجاً تعيش معه ، فكانت هي الفريسة الأولى للصائدين — في هذا العصر كثرت المشاكل الناجمة عن هذا الانطلاق والاختلاء ، واستعصت على جميع الحلول التي يضعها فلاسفة الغرب ، ورأى بعضهم فراراً من حل المشكلة بالطرق الإنسانية ، فحاول أن يحلها بالطرق الحيوانية ، وذلك بالاستسلام لها ، وإطلاق الفريزة تعمل عملها ، وتهوين أمر الفاحشة ، وعدم حسابها إثمًا تلام عليه الفتاة أو الفتى .

وقد ابتلى الوطن الإسلامي بهذا الداء ، فأصبحت الفتاة في بعضه منطلقة هذا الانطلاق الكامل مع الشيطان ، وفي بعضه الآخر تدفع بشده — كما تدفع الشاة إلى المسالخ — لتلحق بأختها .

ولقد درس الإباضية هذه المشكلة منذ خير القرون ، واتفقوا فيه إلى رأيهم الذي ينفردون به فيما أعرف ؛ فحرموا الزواج بين من ربطت بينهما علاقة إثم ، وقد كانوا في تحريمهم لهذا الزواج يستندون إلى روح الإسلام الذي يحارب الفاحشة .

روت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « أيما رجل زنى بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة » .
وهذا الحكم ، حكم تحريم الزواج بين من ربطت بينهما فاحشة بطريق
من الطرق يغلق باب الخدعة أمام الشيطان ، وأمام الإنسان ، فلا يستطيع
بعدها أن يأتى الرجل إلى امرأة فيغرر بها ويخدعها عن نفسها ، ويزعم لها أنه
سوف يتم فعلته الشنيعة بالزواج .

وهذا الحكم ينير الطريق أمام المرأة ، فيجعلها تعرف الصادقين من
الكاذبين من الناس الذين يتصلون بها ، وكل من حاول أن يسبق الحوادث
ويصل معها إلى نتائج الزواج قبل الزواج فهو كاذب أثيم ، وخادع لثيم ،
يحق لها أن تفر منه ، وتبتعد عنه ، أما الرجل الذى يحترم فيها خلقها ، ويصون
لها عفافها ، ويحافظ على شرفها فى نفسه فهو الرجل الصادق ، الذى يريد حقاً
أن يبنى عش الزوجية ، ويحيا الحياة الكريمة .

ولو كان هذا رأى هو رأى جميع فرق الأمة ، وهذا الحكم هو حكمها ،
لقل انحراف الفتاة عن القصد ، واستمسكت بطهرها وعفافها ، ولم تتعد حدود
البراءة ، اللهم إلا من فقدت الحياء ، وأعدت نفسها لتجيا حياة دعارة وبغاء .
لأنها إذا كانت تعرف أنها سوف تحرم على الرجل الذى تزل معه ، وتحرم
منه ، فلا يمكنه أن يتزوجها لأن الدين يحرم هذا الزواج ، فهى سوف
تفكر كثيراً قبل أن تتساهل فى أمر نفسها ، ثم هى تعلم أنه لا يمكن أن
يقدم على الزواج منها أحد آخر . ومن ذا الذى يقدم على الزواج من امرأة
لها ماض أثيم ؟ !

لقد عالج الإباضية موضوع التفرير بالفتاة قبل أن تقع في المشكلة؛ فتأمل أيها
القارئ الكريم هذا الرأي، وزنه بميزان الشرع القويم، وميزان العقل الحكيم،
وميزان التفكير السليم. وإن شئت فأضف إلى ذلك: القاعدة الهامة التي وضعها
الإمام العظيم مالك بن أنس للمعاملات، واشتهرت في كتب الفقه بباب
سد الذرائع.

من أسرار الزكاة

يمر الإنسان صدفة بدور بعض الأغنياء أو متاجرهم أيام عاشوراء ، فيستلفت نظره ازدحام جمهور من الناس على ذلك الباب ، وحين يسأل عن سبب الازدحام يقال له : إنهم فقراء ينتظرون تفريق الزكاة .

وهذه الصورة متولدة عن علم الفقير بموعد صرف الزكاة ، إذ كثيراً ما يسأل الفقير الغنى أن لا ينسأه عند تفريقه للزكاة ، فيعده الغنى بذلك ويحدد له اليوم ، وتصبح هذه الطريقة عادة ، وحتى إذا لم يسبق اتصال بين الفقير والغنى ، فإن الفقير يعرف عادة الغنى وموعد تفريقه للزكاة ، فيذهب في الميعاد ، ويقف مع الواقفين ، ينتظر نصيبه من هذا الحق .

ويطل الغنى من النافذة فيرى الجمهور الكبير الذى ينتظره ، فيزدهيه الموقف ويحس أنه محسن عظيم ، يستفيد من ماله عدد ضخم من الناس ، وهذه نافذة من النوافذ التى يدخل منها الشيطان إلى قلب الإنسان .

إخراج الزكاة فريضة من فرائض الإسلام لا بد من أدائها ، وهى حق لأصحابها فى مال الغنى يجب أن يوصلها إليهم دون أن يصحبها هوان أو مذلة لهم ؛ فلماذا تصبغ بهذا المظهر الذى يدل أكثر ما يدل على الرياء والمباهاة ؟ ولماذا يجمع أرباب الحق فى الزكاة على هذا الصميد فى هذا المنظر المؤذى ليؤدى إليهم حقاً من حقوقهم ؟ !

أليس فى إمكان الغنى أن يفرق ما يجب عليه من حقوق الله على من يستحقها من الناس دون أن يكلفهم عناء التجمع والانتظار ، بل يوصلها إليهم

دون أن يكون بينه وبينهم اتفاق ، فيأتيهم بالفرج على حين غفلة ، ودون أن يحسبوا له حساباً ، ودون أن يحملهم مهانة السؤال ومذلة الانتظار ! !

إن الصورة التي ذكرت ، نجدها في بعض المدن الكبيرة في ليبيا ، وقد اعتاد الفقراء أن يذكروا الأغنياء بأنفسهم ، ويطالبوهم بمقهم في الزكاة .

ويقف علماء الإباضية من هذه المشكلة موقفاً مستوحى من عزة الإسلام وكرامة المسلم .

فإنه ليس من أخلاق المسلم أن يظهر بمظهر الذليل المستجدي ، الواقف على الأعتاب ينتظر ما تجود به الأكف ، وتسخو به الأنفس الشحاح .

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الاستجداء والمسألة ، واعتمد الإباضية تلك الأحاديث الشريفة ، فنفخوا المسلم من إراقة ماء الوجه ، والتعرض لمذلة السؤال ، فإذا هانت عليه كرامته ، وذهب يسأل الناس الزكاة ، حرم منها عقاباً له على هذا الهوان ، وتعويداً له على الاستغناء عن الناس ، والاعتماد على الكفاح .

على أن الزكاة حق لا بد أن يصل إلى أصحابه دون أن يهينوا أنفسهم بالتعرض للأغنياء . ودون أن يتكلموا عليه فيدخلونه في حسابهم ، ودون أن يشعر الغنى بهذا المظهر المتعالي الذي يحوج الناس إليه ، فيأتونه متعرضين لنواله . وقد يصل الفقر بأحد من الناس إلى شدة لا تقوى إرادته على التغلب عليها ، فيضطر إلى تخفيف هذه الشدة بالاستجداء .

وفي هذا الموقف تبرز قضية أخرى هي واجب الأمة المسلمة . فإن حفظ

كرامة المسلمين واجب على الكفاية . وما يحل للأمة أن تترك من بنيتها من يهوى به الفقر إلى المذلة والهوان .

إن من واجب الأمة المسلمة أن تيسر أسباب الحياة الكريمة لكل فرد من أفرادها ، ولا تتخلى عنه حتى تصل به الحال إلى الحاجة المدقعة التي تدفعه إلى السؤال . بل عليها أن تعالج مشكلة الفقر بطريق من الطرق الكريمة ، كأن تيسر العمل لمن يستطيع العمل ، أو تتخذ النظم التي ترعى العجزة وتصد عنهم غائلة الجوع ، وتوصل إليهم ما يرفع عنهم ثقل الحياة بيد عطوفة كريمة .

وقد نتج عن هذا الحكم عند الإباضية — الحكم بحرمان طالب الزكاة منها — أنك لا تجد في المجتمع الإباضى شحاذاً . يحوب الشوارع بتعرض لأبواب المنازل أو المتاجر ليتلقى الصدقات . ولا تجد غنياً يبابه جمهور من الفقراء وهو يوزع عليهم الزكاة في زهوا وخيلاء . وإنما تصل الزكاة إلى أصحابها دون أن يكون للفقير بها سابق علم . ودون أن يحس الغنى أنه يقدم إحساناً ، وإنما يقوم بواجب يخشى ألا يقبله الله منه ، ويرجو من رحمة الله أن تتولاه بالقبول .

وقد كان الإباضية في جبل نفوسة يكونون هيئات تجمع الزكاة وتصرف في مصارفها بالطرق التي لا تكون عند الفقراء عادة الانتظار ، ولا تجمع في السنة مواسم للتجمع لأخذ الزكاة ، وهذه الهيئات التي تتولى جمع الزكاة ، وتحفظها ، وتنفق منها على من يستحقها في تنظيم ، وكثيراً ما تضيف إلى تلك المبالغ المتحصلة من الزكاة مبالغ أخرى مما يتبرع به أصحاب الأموال ، ولا سيما في سنوات الشدة التي قد لا تسكفي فيها الزكاة لسد الخلة عند المحتاجين .

وحبذا لو أن الأمة الإسلامية عملت على مثل هذا التنظيم ، فيسرت العمل
الحر الكريم للفقير ، وحرمت عليه السؤال والاستجداء ، ثم قدرت مقدار
الحاجة فلم تتركها تصل بالمسلم إلى أحط دركات الإنسانية .

على أن هذه الهيئات يجب أن تتكون عند الأمة المسلمة عندما لا تكون
على رأسها دولة مسلمة . أما إذا كانت الدولة مسلمة ، فإن جمع الزكاة يكون
من بعض حقوقها .. ورعاية الفقير وتيسير الحياة الحرة الكريمة له ، وصيانتة من
المهانة والذلّة يكون من بعض واجباتها .

عَصِيَّة

ألف الأستاذ الطاهر احمد الزاوى الطرابلسي ثلاثة كتب فى التاريخ هى
« جهاد الأبطال » و « الفتح العربى فى ليبيا » و « أعلام ليبيا »

وقد أتيج لى أن أطلع على هذه الكتب ، وحين أذكر أننى أقدر الجهود
العظيم ، الذى بذله المؤلف فى هذه الكتب ، وأشكر له هذا الجهد ، أحب أن
أقول عنها الكلمة الآتية :

حينما تقرأ كتاب « الفتح العربى فى ليبيا » تجس أن المؤلف عندما يعرض
للحديث عن الإباضية يشعر بكثير من المرارة ، وهو رغم أنه عرض قضايا التاريخ
فى هذا الكتاب عرضاً صادقاً ، ولم ينحدر ، إلى تغيير الحقائق ، ولم يجد فى
مطاوىء التاريخ ما ينتقده على أولئك الناس ، سواء فى سلوكهم المذنب أو فى
سلوكهم السياسى والعسكرى ، فهم لم يقدموا على أى عمل يخالف أحكام الاسلام
أثناء حروبهم ، وأثناء سلامهم ، إلا أنه رغم كل ذلك ، يشعر المؤلف - وأنت
تقرأ كتابه - بأنه يحمل كراهية متأصلة لهؤلاء القوم ، وبث المؤلف لروحه
فيما يكتب ، وإشباعه لكتابته بهذه الروح . حتى يحسها القارئ إحساساً واضحاً
ملكته لا يتحلى بها إلا عدد قليل من كبار الكتاب .

لقد كان الإباضية كما كان غيرهم من كل الفرق يشورون على ألوان الظلم
والظلم ، الذى يقع من ولاية العباسيين الجبارة ، أو من غيرهم ممن وصل إلى
مراكز الحكم بدون أن يؤهله دينه لذلك ، وحرص المؤلف أن يسمي الثورات
التي قام بها الإباضية « فتناً » حتى يوم القارئ أن هؤلاء القوم يشغبون على

الدولة ، دون أن يكون لهم حق ، وهو لا يطلق هذا الوصف على آلاف الثورات التي قامت للنزاع على الحكم ، والانتقام من المذنب والبريء . وعن الحروب الطاحنة التي تبادلها عمال العباسيين في كل المملكة الإسلامية ، ومن بينها ليبيا .

ومن العجيب أن هذا الكتاب — رغم هدوئه الظاهري — يكاد يكون محاولة سافرة لإيقاد الفتنة بين العرب والبربر ، ودعوة صارخة لإحياء ما يكاد يندثر من دعوة النصرانية البغيضة ، وبرغم أن الفتح كان إسلاميا قبل أن يكون عربيا ، وأن مقاومة الدين الجديد التي قام بها البربر إبان الفتح ليست أشد من الحروب التي قام بها العرب أنفسهم لمعارضة الإسلام عند الفتح ، ولا أشد من الحروب التي قام بها الفرس أو الترك أو الروم ، أو غيرهم من الشعوب عندما بلغتهم رسالة الله ، برغم أن هذه المقاومة لدين الله لم تخص بجنس من الأجناس البشرية ، فإن صاحب الكتاب يحاول أن يجعلها صفة متمكنة من البربر ، ويصف هؤلاء القوم بالتشدد والإعراض عن دين الله .

ونحن لا يهمنا أمراً أولئك المعرضين في قليل أو كثير ، والكفر ملة واحدة ، يجتمع عليها — في جهنم — البربري والعربي والفارسي ، وزملاؤهم من جميع الأجناس ...

وفي تسمية الكتاب نفسه دليل على هذه الروح التي كتب بها الأستاذ الزاوي تاريخه القيم ، وبدلاً من أن يكون عنوان الكتاب : « الفتح الإسلامي في ليبيا » صار العنوان : « الفتح العربي » ...

ولو كان الفتح عربياً فقط لما كان هنالك فرق بينه وبين الفتح الإغريقي ، أو الروماني ، أو التتري ، أو غيرها من الأجناس ، فليس العرب باعتبارهم جنساً أكرم على الله من المغول ، أو السكسون ، أو الهنود الحمر ...

عندما افتتح الإسلام هذه البلاد ، وعمّ نور الهداية المحمدية هذه الربوع ،
لم يبق لكلمة العرب والبربر مكان ، فإن الله قد أبدلها اسماً آخر خيراً وأهدى ،
هذا الاسم هو الكلمة التي اختارها الكتاب الكريم ، فدعا بها أتباع محمد
عليه الصلاة والسلام :

« يا أيها الذين آمنوا » أو تلك الكلمة الأخرى التي سماها بها جدم
إبراهيم خليل الله عليه السلام :

« هو سماكم المسلمين » فلماذا نسند الفتح إلى جنس من البشر ، مع أن
الفتح للإسلام ، والله يسخر من جنده من يشاء ...

وعندما تحدث المنازعات والثورات ، لماذا لا نشرح أسبابها الحقيقية ،
ونعترف بالخطأ سواء كان هذا الخطأ من الدولة أو من التأثيرين عليها ، ثم ننسب
هذه الثورات إلى القائلين بها ، لا إلى أجناسهم وعناصرهم ؟ .

قلت لقد حرص المؤلف أن يسمى حركات الإباضية بالفتنة ، وأن ينسبها
إلى البربر ، حتى يجمع الإباضية في صعيد واحد مع فرق أخرى ، يرى المؤلف
أنها رقيقة الدين ، ضعيفة الإيمان .

ولكنه لم يكلف نفسه عناء تبرير أحكامه هذه عندما يسنده إلى أمة مسلمة ،
ولم يجد في الواقع التاريخي ما يجعله يؤمن بأن حركات الثورة التي يقوم بها
الإباضية ، كانت فتنة أو تدعو إلى الفتنة ، فإن الحكم الذي كان بيد الأمويين
أولاً - ماعدا فترة قصيرة هي خلافة عمر بن عبد العزيز - وبيد الدول العباسية ثانياً .
كان ملكاً عضوضاً ، كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن خلافة رشيدة . والثورة على هذا الملك العضوض الظالم لا تعتبر

فتنة ، ثم إن ولاية هذه الدول وعملها في مختلف بلاد الإسلام ، لم يتقيدوا بأحكام الكتاب ، ولم يعرفوا للعدل معنى ، ولم يحترموا للناس حقاً ، فكانت الأمة لا تكف عن الثورة ، ولا تقف عن الكفاح ؛ كفاح ألوان الاضطهاد والظلم والظلمين في جميع بقاع العالم الإسلامي ، في الجزيرة العربية ، وفي الشام ، وفي العراق ، وفي فارس وما وراءها ، وفي مصر والمغرب الإسلامي . غير أن مؤلف كتاب « الفتح العربي في ليبيا » لا يخلو له أن يطلق كلمة الفتنة ، إلا على الثورة التي يقوم بها هؤلاء الذين يحرص أن يطلق عليهم اسم البربر ، ليجعل منهم صفاً معارضاً للعرب ، ويجهد أن يجعل بينهم وبين الإسلام سدّاً ، وأن يشعل بينهم وبين أخوتهم من العرب ناراً ...

لقد كان أكثر أولئك الذين قادوا الثورات التي قام بها الإباضية في ليبيا من العرب ، ورغم ذلك فإن صاحب الكتاب ينسبها إلى البربر ، ويعبر عنها بالفتن .

إن الثورات في العالم الإسلامي لم تقف يوماً واحداً منذ انحرف القائمون بالأمر عن الحكم بكتاب الله ، والسبب في ذلك بسيط ومعقول :

كانت البشرية خاضعة لآلهة من البشر ، صابرة على طغيان الإنسان ، حتى جاء الإسلام فبعث كرامة الإنسانية في المسلمين ، وحرّم فيهم الاستكانة والذلّة ، والعبودية ، ما أمكنهم دفاعها ، وشعر المسلمون بتحقيق هذه الكرامة في عهود النبوة والخلافة الرشيدة ، فلما تولى الحكم أولئك الذين انحرفوا عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الأثرة ، وعن العدل إلى الجور ... ثار الأحرار في كل مكان ، ولا يزالون يشورون إلى اليوم ، وإلى يوم القيامة .

وقد عجبت للمؤلف وهو يكتب في هذا العصر الذي استيقظ فيه المسلمون وعرفوا جميع أخطاء الماضي ، وهم أحرص ما يكونون على إبعاد ذلك الشبح البغيض ، الذي فرقهم إلى أحزاب وشيع ، وملأ قلوب الناس بالبغضاء والكراهية ، وسهل عليهم الوثوب على من يخالفهم لسبب ولغير سبب ...

عجبت للمؤلف كيف يسمح لنفسه أن يكتب بهذا الأسلوب ، وبهذه الروح ، وأن يرتضى لنفسه أن يكون محبي عصبية ، في هذا العصر الذي يجب أن تتكفل فيه الأمة ، وأن تتضامن فيه جهودها ...

لقد بذل المؤلف جهداً جباراً وهو يكتب عن وطنه الحبيب، ولكنه حرص أشد الحرص على الكتابة بهذا الأسلوب وبهذه الروح حتى في كتابه «الأبطال» فكان يستعمل كلمة العرب والبربر بدلا من أى اسم آخر ، قد يكون أدق في المعنى ، وأوفى بالغرض ، وإنه لغريب حقا للمؤلف في مثل علم الأستاذ الزاوى ، واتساع ثقافته وكرهه لدواعي التفرقة والخلاف ، أن يسخر قلمه لدعوى الجاهلية التي برىء منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يحرك قضية الجنس في الشعب الواحد ، وأن يميز بين العرب والبربر ، كأنه نسي أن الله تعالى جعل الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وأن الإسلام يذيب الجفسيات ، ولا يحفل بالقوميات ، ولا يأبه للعناصر : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلماذا يحاول بعض الناس إحياء العصبية القبلية ، أو الخلافات العنصرية ، بعد أن أغنانا الله عنها بالإسلام :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تآمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ، فإذا كان لعربي فضل فهو فضل الإسلام ، وإن كان لبربري فضل فهو فضل الإسلام :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقد حصل بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ،
وسلمان الفارسى ، على ما لم يحصل عليه غيره : تلك الدولة الأموية من
ورائه ، وهارون الرشيد والدولة العباسية من بين يديه وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء .

وإذا كان لبربرى أو عربى ما يؤاخذ عليه ، ويحاسب على ارتكابه
أو تضييعه ، فهو سلوك المعصية ، والانفصام عن عرى الدين ، وعدم التخلق
بأخلاق القرآن الكريم ، وعدم التقيد بما دعا إليه محمد عليه السلام فى الكتاب
الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفى الحديث . الذى هو
« ان هو الا وحى يوحى » (١) .

وفى السيرة العطرة التى هى التطبيق الحقيقى للإسلام ، فمن شاء أن ينصب
نفسه حكماً ، ويقف موقف القاضى ، يتحكم فى التاريخ ، ويتحدث عن أقدار
الرجال . فليجمل هذا الميزان نصب عينيه ، ليزن أعمال الناس إن كان يستطيع ،
وعند ربك الميزان الحق ، والحساب الدقيق .

هذا تعليق قصير على كتاب ضخم بذل فيه المؤلف من الجهد والوقت
شيثاً غير قليل ، وإننا حين نقول قولة الحق فى مأخذنا على هذا المجهود العظيم .
لا نفسى أبداً . أن المؤلف قدم للوطن خدمة سوف تشكرها له الأجيال القادمة ،
ولا يضمننا هذا الثناء عليه ، والتقدير له ، أن نشير إلى تلك الهفوات ؛
وأى مؤلف لم تقع له هنات وتوجه إليه انتقادات ، وتحصى له غلطات !

وإذا أنسا الله فى الأجل ، ووفق فى العمل ، فسوف أحاول أن أناقش
الكتاب فيما ظهر لى أن المؤلف أخطأ فيه التوفيق ، وحاد فيه عن
الصواب .

إعتصام الإباضية بالدين

لقد أشرت إلى بعض الأصول العملية التي يمتاز بها الإباضية ، ويعتمدونها في مذهبهم ، ويحسن بي الآن أن أعود إلى تفصيل حياة هذا المذهب في الأمة الإسلامية ، وإلى أثره في مجرى تاريخها ، وإلى مسلك أتباعه للأصول التي أصلوها ، والقواعد التي دونوها ، والبادئ التي ساروا عليها في جميع عصور التاريخ ، طبقاً لمسالك الدين التي سبق عنها الحديث .

وليس من الدعوى أو التبجح أن أقول إن الإباضية من أولى الفرق الإسلامية التي تحرص أن لا يتخطى أفرادها الحدود التي رسمها لهم الدين ، وأن يكون المسلم منها صورة صحيحة حقيقية لما رسمه الإسلام ، وأوضحته سيرة السلف الصالحين ، وليس معنى هذا أنه لا تقع معصية من إباضى ، فإن هذا ليس من طبع البشر ، وإنما المقصود أنه عندما يرتكب أحدهم معصية ، فإما أن تكون مما يعلمه الناس ، أو مما يلم به الفرد مستتراً حين يغلبه الشيطان . فإذا كان الخطأ من النوع الأول ، بادر المسلمون إلى إعلان البراءة منه ، وقطع التعامل معه ، والجفوة عليه حتى من أقاربه وأهله ، حتى يعترف بما ارتكب على الأَشهاد ، ويعان توبته إلى ربه ورجوعه إليه ، ويماهد الله ألا يعود ، وهكذا يرجع العاصي إلى حظيرة الأمة ، وتطهر من أرجاس المعصية ، ايعاود الكفاح في سبيل الله ، والعمل الخير وقد تطهر والدعوة إليه ويحيا حياة نظيفة في مجتمع نظيف .

أما إذا كان من القسم الثماني أى من الأخطاء التي يلم بها الإنسان مستتراً . فإن ذلك يجعله يسير مع الركب في الظاهر ، على أن ضميره لا يكف عن التوبيخ وهو يعتقد أنه ليس فيما يعصى الله به صغير كما قال ترجمان القرآن رضى الله عنه ،

وأن من ورد على ربه بهذه الحالة سيكون من أصحاب النار خالداً فيها أبداً ، وفى ذلك زجر له عما ارتكب ، وداع إلى الإقلاع عما ألم به من وساوس الشيطان ، والذي يدعو أتباع هذا المذهب إلى هذا التمسك الحريص ، أفراداً وجماعات ، إنما هو بعض القواعد التى يمتاز بها هذا المذهب عن غيره من المذاهب ، كوجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، على الفرد المسلم ، والمجتمع الإسلامى ، وتطبيق ذلك فى مسألة الولاية ، والبراءة ، والوقوف ، وكالقاعدة الأخرى الهامة التى تجمل الإيمان لا يتم إلا بالعمل ، فلا يجحد العاصى مستنداً يستند عليه بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس ، ولا يحق له أن يطمع فى دخول الجنة بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دون أن يقرن ذلك بالعمل الصالح . كما لا يحق له أن يأمل فى الخروج من العذاب الأليم وقد قدم على ربه ، مرتكباً فى عمله ، مرتكباً بذنبه :

« بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون... » لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد . »

وبناء على هذه الأسس التى يراها الإباضية من قواعد الدين ، كانت أعمالهم صوراً حقيقية لمبادئهم وعقائدهم .

وقد اشتهروا بذلك على مدى التاريخ ، وعرفوا به . فساكنوا فى مجتمعاتهم وأفرادهم أمثلة للمؤمنين الذين يحافظون على دين الله فى واجباته وآدابه ، وجميع الأخلاق التى دعا إليها ، ويتعدون عن كل ما نهى الإسلام عنه ، أو كرهه ؛ من قول وعمل ، يسارعون إلى الخيرات ويتعدون عن المحرمات ، ويقفون عند الشبهات ، مصداقاً لقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

« كنا ندع سبعة من بابا من الحلال مخافة أن تقع فى الحرام » . وإذا كانت

هذه الصورة الصادقة لما عليه الإباضية منذ أول التاريخ إلى اليوم ، فإنه من الحق المؤلم أن أعترف أن الإباضية في ليبيا بدأوا ينحرفون من حيث العمل عن هذا السبيل القويم ، الذى سار عليه أسلافهم ، وحافظ عليه أجدادهم ، حفاظ المؤمنين المخلصين لدين الله .

بدأ هذا الانحراف عن السبيل القويم منذ اشتعلت نار الفتنة بين المسلمين فى حرب إيطاليا بسبب ما دسسته من مكائد بين الأخوة ، وتسليط بعضهم على بعض ، وإمدادها لكل فريق بالمال والسلاح سرّاً وعلانية ، ليشتد النزاع ، وتذشق العصاة ، وتفترق الأمة على نفسها ، فيهنون عليها احتلال البلاد ، وامتلاك العباد .

ومنذ ذلك الحين ظهر فى المجتمع الإباضى من يرتكب المعصية جهاراً ، ويخون أمانة الله نهاراً ، فيشرب الخمر التى حرم الله ، أو يفش فى البيع والشراء ليكتسب مالا . أو يستهين بمحدود الله ، ليجامل أعداء الله . بل أدهى من ذلك وأمر ، أنه وجد فيهم من يترك الصلاة ، أو يمتنع عن الزكاة ، فيخل بأحدى الواجبات ، وهو يدعى الإسلام . وينتمى فى زعمه إلى أتباع عبد الله ابن إباض . فإذا جئت لتنهاه عن هذا المنكر أجابك فى غير مبالاة أن مذهب الإباضية مذهب شديد ، وأنه سمع أن غيره من المذاهب لا يفلقون أبواب الجنة فى أوجه العصاة ، كأنما أصبحت أبواب الجنة وأبواب الجحيم فى أبدى الناس ، يفلقونها متى شاءوا ، ويفتحونها لمن شاؤوا .

فى هذا الحين الذى أذكر فيه هذه الحقائق المؤسفة المؤلمة وأنا ألخا إليه تعالى أن يهدى قومى فإنهم لا يعلمون ، أذكرهم بكل فخر واعتزاز: أن علماء الإسلام اليوم يدعون إلى دين الله على روح هذا المذهب ؛ فكأنما يستقون من أصوله

وقواعده ؛ ولا غرابة في كل ذلك ، فإن كل مسلم يفار على دينه ، ويدعو إلى كتاب ربه — يجد نفسه قريباً من هذا المذهب ، لأنه يستقى من النبع الصافي الذي استقى منه وحافظ عليه .

ولو أن المسلمين في جميع الأقطار حرصوا أن يكونوا صوراً حية للإسلام كما كان الإباضية ، لما وجد أعداؤهم بينهم مدخلا ، ولا بين صفوفهم طريقا .

إن الاستعمار والظلم والطغيان لم يستطع أن يتغلب على المسلمين إلا حينما بذر بينهم فتنة المال والمتعة الحرام ، وأشاع بينهم الفاحشة والمنكر ، وسهل عليهم الإعراض عن حكم الله إلى حكم الإنسان ، وقطع العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فأعطى للفرد حق الحرية في ارتكاب ما يشاء مما حرم الله .

ولو أن المجتمع بقى مهيمنا على سلوك الفرد ، فلا يستطيع إنسان يدعى الإسلام أن يجد ما خوراً ، أو يرتكب زنى ، ولا يستطيع مسلم أن يجد في بلد مسلم حانة ، أو يشرب خمراً .

ولا يستطيع إنسان يدعى الإسلام أن يجد مقمرة ، أو يلعب قماراً ، ولا يستطيع مسلم في مجتمع إسلامي أن يجد ما يساعده على ارتكاب محرم ، أو يخالف سيرة من سير المسلمين ، أو خلقاً من أخلاق المؤمنين ، لأن المجتمع سوف يقف له بالمرصاد ، ويحاسبه على ما ترك أو قدم ، حتى يعود إلى الطريق الأمثل ، والصرط الأقوم ، والسبيل السوى .

لو أن المجتمع الإسلامي بقى مهيمناً على سلوك الفرد كما كان ذلك في صدر الإسلام ، وكما بقى ذلك عند الإباضية إلى اليوم ، لما شذ المسامون عن الإسلام . ولما بعدوا عن كتاب الله ، ولما غاب عنهم عدو لا يرحم ، أفسد فيهم

الدين والخلق ، قبل أن يستغلهم في العمل والمال ، يأخذ منهم الجهد والثروة ، ويقضى فيهم بحكم الجبروت والقوة .

وإنه لمن الابتعاد عن دين الله ، ومن المجافاة لكتاب الله ، ومن التنكب عن هدى رسول الله صلى عليه وسلم أن تجيء اليوم إلى بلد إسلامي تحكمه — فيما تزعم — دولة مسلمة ، فترى دور البغاء مفتحة لطلاب الشهوة ، وعبيد الشيطان ، لأن دولا من الغرب ترى أن في ذلك مصلحة .

وترى حانات يروج فيها البيع والشراء ، وتزدحم الزبائن على ارتشاف ماحرمه الله ، وأمر نبيه عليه السلام بكسر دنانره ؛ لتساير الدولة المسلمة أعداء الله وتكسب منهم — في زعمها — مالا حراما .

وترى دوراً مشيدة الأركان ، عظيمة البنيان ، مفروشة بأرقى ما وصل إليه ذوق الإنسان ، تهدر فيها قيمة الكسب ، وتضيع فيها ثمرة الجهد ، لتلتهم المائدة الخضر الممال الذي هو من حق الأمة ، اختلسه منها الأبناء العاقون ، والحكام الظالمون ، والعملاء المستغلون .

إن هذه الصور وآلافها من هذه الصور التي تتراءى كل يوم في كل بلد من بلاد الإسلام ، يجب أن تزول ، لو أن المجتمع الإسلامي بقي مهيمناً على الفرد ، ومهيمناً على الدولة التي يسير بها أفراد ، لأن هذه المواقف التي أشاعها الاستعمار في بلاد الإسلام ، ليحول بين المسلمين والعمل بمقيدتهم الصافية ، وخلقهم الطاهر السليم ، هي الأدوات التي فتكت بالشباب المسلم .

فهانث عليه كرامة الرجولة ، وأذلته الشهوة المحرمة ، فضاء عرضه وحيويته بين بيوت الدعارة ، وتسكع بين الحانات يشرب الخمر ، ويقرع الكاس

بالسكاس ، حتى ضاع وقته ، وضاع عقله ، ثم حاول أن يكتسب المال من أيسر طريق ، فولج دور القمار ، فسرق القمار ماله وأعصابه وسلامة تفكيره ، وخرج إلى الشارع حطاماً ليس له مال ولا عرض ولا دين .

وقد سلم المجتمع الإباضى من هذه الأدواء وأشباهاها على مدى التاريخ ، ما عدا الأربعين سنة التى استثنيناها فيما سبق من تاريخ ليبيا فقط ، لأن المجتمع الإباضى بقى مسيطرأ على الفرد ، ولأن نظام العزابة كما أشرت إليه فى فصل مسالك الدين فى دور السكمان ، بقى يوجه المسلمين ويحاسبهم على أعمالهم ، ويحدد لهم الاتجاه الذى بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تغلب المستعمرون على ليبيا وقضوا على نظام العزابة فى البلاد ، وحالوا بين العلماء وبين القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنعوا إعلان الولاية والبراءة ممن يستحقها ، بدأ بعض الناس يستمرئون طعم المعصية ، ويتشبهون بمن جاورهم ممن لا يخاف فى الله إلاَّ ولاذمة . ويرمون بأبصارهم إلى الحياة التى يحياها العابثون من أعداء الله وأعداء الإسلام .

على أن هذه النكبة التى أصابت الإباضية كما أصابت غيرهم من المسلمين ، كانت مقصورة على الإباضية فى ليبيا ، أما إخوانهم فى بقية البلاد^(١) فقد

(١) أستطيع أن أضرب مثلاً لذلك بالإباضية فى الجزائر ، وقد بقى هذا النظام يطبق عندهم إلى الآن ، ولم تستطع فرنسا المستعمرة بكل ما لها من وسائل الفساد والقمهر أن تنال منهم غير قسط من المال يدفعونه إليها جلة لا تهصيلا . أما نظام السيادة والحكم والإشراف على الخلق والدين والتعليم والمجنم ، فقد كان لنظام العزابة ، وقد نتج عن ذلك أن كانت حياتهم حياة تشرف الأمة المسامة ، حتى فى حالة السكمان ، عندما تكون مغلوبه على أمرها سياسيا . والإيمان الحق قوة فى القلب ، وقوة فى الخلق وقوة فى السلوك تفرض عظمة الشخصية . وتستدعى الاحترام . حتى على الحديد والنار . وأصحاب الحديد والنار .

استمرت حياتهم كما كانت عليه زمن السلف الصالحين ، لا تؤثر عليهم خطة
استعمار ، ولا يغلب عليهم انحلال الجوار ، ولا يجد الشر إلى بلدهم سبيلا ، ولا
تعرف المعصية إليهم طريقا . ولا يفر الفرد بعمله عن حكم المجتمع الذي يسهر على
الدين ، وعلى الخلق ، وعلى العمل .

والآن ، وقد ذهب الاستعمار ، وتحرر منه العالم ، فلعل الإباضية في ليبيا
يرجعون إلى سيرة السلف التي يعتمدها الإسلام ، ولعل المسلمين يعودون إلى هدى
محمد ، معرضين عن زخرف القول من عبيد الدنيا .

ولعل الدولة — وهي مسلمة — تلقى القوانين التي وضعها البشر لتعمل
بالقانون الذي أنزله السماء ، وتعرض عن مسايرة أعداء الله ، الله . وتنظف البلاد
المسلم من أسباب المعصية ، لتنظف أخلاق الشباب . وأنه لأهون على المؤمن
أن يفضب كفيدي وخروشوف ونهرو وابن غريون وإبليس وجمع أتباعهم من
أن يفضب الله . وقد أغضب محمد صلى الله عليه وسلم أبا جهل ، وكسرى ، وقبصر
وغيرهم ، ليرضى الله ... ولنا في رسول الله أسوة حسنة !!

الإباضية في قيادة الامة

قلت في الفصل السابق : إنه يحسن بي الآن أن أعود إلى تفصيل حياة هذا المذهب في الأمة الإسلامية ، وأثره في مجرى تاريخها الحافل ، وإلى سيرة أتباعه أفراداً ومجتمعاً .

وقد قلت إن المجتمع الإباضى — بناء على قواعد مذهب كوجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ووجوب الولاية ، والبراءة ؛ للأفراد ، والجماعات ؛ وعدم تمام الإيمان إلا بالعمل الصالح ، الذى يدعو إليه الإسلام ، وأنه لا أمل للعاصى — الذى يموت على معصيته — فى رحمة الله .

إن المجتمع الإباضى بناء على هذه القواعد ، كان صورةً صحيحةً للمجتمع المسلم النظيف ؛ طهارة فى العقيدة من الزيغ والبدعة ، وطهارة فى العمل من أدران المصيبة ، وطهارة فى الخلق بالتحلى بما تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وندب إليه وتخلق به المؤمنون الصادقون فى كل زمان .

وقد ظلمت الطوائف الإسلامية الإباضية مرتين ، ظلمتهم حين حشرهم بعض المؤرخين المفرضين فى الخوارج — وهم أبعد الناس عن الخوارج — فصدقت تلك الطوائف هذه الدعوى من المؤرخين المفرضين .

وظلمتهم مرة أخرى ، حين رضيت بهذا الحكم على طائفة من أصدق المؤمنين ، دون أن ترجع إلى التحقيق فى قواعد هذا المذهب ومستنداتها من الكتاب والسنة ، والتحقيق فى مدى تطبيق اتباع هذا المذهب لقواعد الإسلام وأخلاق الإسلام ، ودعوة الإسلام .

ولورجعت تلك الطوائف إلى التحقيق في هاتين الناحيتين : ناحية العقيدة ومستنداتها ، وناحية العمل وتطبيقه ، لراجعت نفسها وغيرت حكمها ، وتبين لها وجه من الصواب والحق لم يبد لها في أول الأمر .

وقد حاول بعض العباقرة في مختلف العصور أن يتخذ هذه الخطوة فاستبان الرشد ، وظهر له الحق ، ولكنه أحجم عن مواجهة الرأي العام الذي يثق فيه ، بما رأى وظهر له ، فاتخذ طريقاً وسطاً ، وعبر عنه بالجملة المشهورة التي تناقلتها كتب التاريخ : « الإباضية أقرب الفرق إلى أهل السنة » .

أما أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فقد كان موقفه أصرح من ذلك ، وقد وعد الجماعة أن يحى كل يوم سنة ويميت بدعة .

وكان من العباقرة الذين حاولوا هذه المحاولة مالك بن أنس ، وعبد الملك ابن مروان ، وابن حزم الظاهري ، والشهرستاني^(١) والطاهر الزاوي — وحسب الزاوي فخراً أن يذكر مع هؤلاء العباقرة الأعلام — وغيرهم من الذين اتسعت آفاقهم للفهم والبحث والتحقيق ، ولم يقتصروا على إشاعة كاذبة ، أو دعوى مفترضة ، أو قول ذهب إليه ناس دون أن يعرفوا شيئاً من كتب أصحاب هذا المذهب ، وبطلعوا على سلوكهم وسيرهم الاطلاع الكافي ، الذي يعطى الصورة الحقيقية لإجراء الحكم .

وكما كان الفرد العادي من الإباضية صورة صحيحة للمسلم الذي يدعو إليه الإسلام ، وكان المجتمع الإباضي صورة صحيحة للمجتمع المسلم الذي يقيم شعائر الله ، ويحافظ على دين الله ، ويعمل جاهداً لتطبيق أحكام الله ، حتى

(١) راجع القول المتين للشماخي . والرد على المقبي لا تطب . والامعة المرضية لا الهى .

في حالة الكتمان ، كذلك كان من تقلد أمر المسلمين من الإباضية صورة للمسلم المخلص ، الذي وثق به المسلمون ، فأسندوا إليه أمور دينهم ودنياهم ، فأكبر هذه الثقة من الأمة ، وحافظ على هذه الأمانة من الله .

ولما كنت لا أقصد أن أتحدث عن التاريخ السياسي للإباضية — ولو أن السياسة لا تفترق عن الدين في الإسلام — فقد يكون مما يتم به هذا البحث أن أخلص الحركة السياسية للإباضية بأشد ما يمكن من الاختصار .

انتشر المذهب الإباضي في جزيرة العرب وما جاورها ، كالعراق ومصر ، وفي شمال أفريقيا ، قبل أن تتكون المذاهب الأخرى ، وقد استقر الإباضية على كثير من القواعد والآراء في أصول الدين ، قبل أن تنشأ مذاهب الأشاعرة ، وقبل أن ينفصل واصل بن عطاء عن أستاذه الحسن البصري ، فتكون من ذلك فرقة المعتزلة ، وكل ما كان موجوداً حينئذ من الطوائف الإسلامية ، إنما هم بعض فرق الشيعة ، وبعض فرق الخوارج ، وأهل السنة والجماعة . ولست أقصد بأهل السنة والجماعة في هذا الفصل فرق الأشاعرة ، فإن إطلاق هذه التسمية عليهم خطأ تاريخي ، جاء متأخراً . وإنما كان يطلقون على السنية والجماعة على معاوية بن أبي سفيان وأتباعه . لأنهم أنكروا إمامة علي بن أبي طالب ، وجعلوا سبه على المنابر ولعنه سنة متبعة ، فسماوا من وافقتهم أهل السنة والجماعة (١) .

قال المسمودي : « إن أصحاب معاوية ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن على سنة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير ، يلعنه على المنابر » .

(١) راجع انقول المثين للشماخي .

وقال الحاكم : « وإنما غلب عليهم إسم السنية ، لأن معاوية لما أمر بلعن على بن أبي طالب ، زعم أنه سنة ، فاستحق هذا الإسم كل من يرى إمامة معاوية حتى قتل « أى على » واستقر الأمر لمعاوية ، وانقاد إليه الجميع ، فزادوا إسم الجماعة على السنة ، فسمّوا بها . »

وقال المنذرى فى رسالته « الصراط المستقيم » : —

« وإنما تركوا ذلك الآن ، لأن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً مائلاً إلى مذهب المصوبين لإمامة على ، المانعين من نكثها ، وأحسب أنى وجدت فى بعض الكتب أنه كان دعا من كان فى زمانه من الإباضية إليه ، فعاهدهم على أن يغير كل يوم منكرًا من منكر هؤلاء السنية ، فحينئذ أنكر عليهم شيئاً بعد شيء حتى أنكر عليهم — لأنه لم يكن أحد فى تلك الأزمنة ينكر عليهم منكرهم إلا الإباضية — لعنهم الله فكفوا عنه خوفاً منه ، لعنهم الله لمخالفته مذهبهم ذلك ، ولقوة سلطانه عليهم » انتهى .

ومن هذا يتضح أن كلمة « أهل السنة والجماعة » لا تطلق على مذهب دينى ، وإنما كانت تطلق على مذهب سياسى ، يدعو إليه بنو أمية ، ليستخلصوا الخلافة من بنى هاشم ، وإن هذا المذهب الذى أطلق على نفسه أحب الأسماء إلى المسلمين قد تطرف إلى حد لم يصل إليه أحد فيما أعلم ، مما وصلت إليه يدى من أحداث التاريخ : تاريخ السياسة أو تاريخ العقيدة ، فيجبل أتباع مذهب مهما كان متطرفاً سب خصومهم ولعنهم سنة متبعة فى كل اجتماع .

قلت إن الإباضية انتشروا فى أكثر بلاد الإسلام قبل أن تتكون كثير من الطوائف الإسلامية الأخرى ، كفرق الأشاعرة والمعتزلة وغيرها ، وبقطع

النظر عن المدة القصيرة التي قام فيها الإمام عبد الله بن إباح بأعمال عسكرية ،
لمحاربة طغيان الأمويين ، وبقطع النظر عن المدة التي بوجع فيها الإمام عبد الله
ابن يحيى طالب الحق ، فطهر الحرمين الشريفين ، من عبث العابثين ، أقول
إنه بقطع النظر عن هذه الحركات ، فقد قامت للإباضية دول مستقلة في أنحاء
البلاد الإسلامية . قامت للإباضية دول مستقلة في عمان . وتعاقت على الحكم
فيها إلى العصر الحاضر ، وقد بلغت من القوة في بعض عصور التاريخ أن
كونت أسطولا يسيطر على البحار ، ويتحدى أقوى دولتين في العالم : أسبانيا
والبرتغال في ذلك الحين . ومن أراد أن يستقصى ذلك ، ويعرف ما كانت عليه
هذه الأمة المسلمة ، من مجد وعظمة ، عندما كانت أوربا تغط في نوم عميق ،
وكانت بقية الأمة الإسلامية رازحة تحت طغيان جبابرة الحكم ، وعبداء المال ،
من أراد أن يعرف ذلك ، وأكثر من ذلك ، فليقرأ نخبة الأعيان للعلامة السالمى ،
وليطالع على ما كتبه أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، وقد يجد صوراً من
ذلك ، في إحدى حلقات هذا الكتاب . حلقة « الإباضية في الجزيرة العربية » .

أما في المغرب الإسلامي وأقصده بالمغرب الإسلامي البلاد الواقعة بين
الحدود المصرية والمحيط الأطلسي ، فقد قامت فيه أيضاً دول للإباضية كانت
أمثلة رائعة لما يجب أن تكون عليه دولة مسلمة تحكم بكتاب الله ، وتتبع هدى
رسول الله ، وقد بدأت حركة مكافحة الظلم ، ظلم الولاة العباسيين في ليبيا عندما
كان هؤلاء الولاة ينحرفون عن أحكام القرآن ، وتفرغوا الحياة الدنيا فيتجبرون
ويظلمون ، وتفرغوا سيطرة الجاه وسلطة الحكومة فلا يحسبون للشعوب قيمة ،
ولا يقيمون للعدل حساباً ، ولا يذعنون لما يفرضه الحق على الحاكم والمحكوم .
فتار الإباضية على الظلم ، وبايعوا بالإمامة الحارث بن تليد المرادى ، ثم أبا الخطاب

عبد الأعلى بن السمع المفاوى ، ثم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن حاتم
للزوزى ، وقد كان مركز هذه الحركة هو الجزء الشرقى من المغرب الإسلامى ،
أى البلاد التى تمتد ما بين سرت والقيروان .

وسوف نعرض صوراً رائعة من سيرة هؤلاء الأئمة العظام فى إحدى
حلقات هذا الكتاب . حلقة « الإباضية فى ليبيا » .

وعندما تضافرت جهود الظالمين للقضاء على هذه الحركة الثورية التى ترمى
إلى إرجاع الحكم لكتاب الله وسنة رسوله ، وحالوا دونها ودون القيام بما
آمنت به ودعت إليه .

انبعثت هذه الحركة نفسها فى الجانب الغربى من المغرب الإسلامى ،
فحكومت الدولة الرسمية فى تاهرت ، وتعاقب عليها الأئمة : عبد الرحمن ،
عبد الوهاب ، أفلح ، أبو بكر ، أبو اليقظان ، أبو حاتم ، وحقق أولئك الأئمة
العظام ما يطلب من ولاية أمر المسلمين . . وأحاديثهم وأخبارهم منشورة
فى كتب التاريخ .

وسوف نستعرض بعض تلك الصور الرائعة فى إحدى حلقات هذا
الكتاب : حلقة « الإباضية فى الجزائر » .

راجعت ما وصات إليه يدى من كتب التاريخ ، سواء كانت من كتب
أهل المذهب أنفسهم ، أو من غيرهم من الفرق الإسلامية فما وجدت فى سيرتهم
إلا ما يشرف فى جميع أدوار التاريخ .

إنك لتطالع حروباً طاحنة ومعارك حامية . وانتصاراً أو انهزاماً ، وإليك

لتجد في كل ذلك عفة كالتى تعرفها عند الخلفاء الراشدين ، احترام لأفراد
الشعوب المسالمين ؛ في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وعدل في الجنود المحاربين :
قتل عند ساحات الوغى ، ولكن لا اتباع لمدير ، ولا إجهاز على جريح ،
ولا تعدى على أعراض ، ولا — تحلل لأموال الموحدين مهما كانت
مذاهبهم . وسماح وعفو وعدل عند نهاية الحرب ، لم يعرفوا الانتقام بعد
الانقصار ، فلا مثلة ولا قطع رؤوس لترسل من بلد إلى بلد للنشقى والانتقام ،
وإظهار البطش والجبروت . حرصوا على أن يقفوا حيث وقف بهم الإسلام ،
وأن يعملوا حكم الله وسيرة نبيه ووصايا الخلفاء الراشدين ، مناراً به يهتدون ،
وإليه يرجعون .

كلمة قصيرة

لست أرمى من كتابة هذه الفصول إلى الكشف عن الناحية السياسية للمذهب الإباضى ، والعناية به عناية خاصة ، فإن الحركة السياسية فى نظرى أقل من الجوانب الأخرى ، ولذلك فأنا أتحدث عنها كظواهر ، وأعراض لتطبيق المبادئ تطبيقاً صحيحاً سليماً فى حياة الإباضية ، حياتهم العملية ، وأبين بها الفرق بين الفرق التى يكون مسلكها صورة تطبيقية لعقائدها ومبادئها . والفرق التى ترى بونا شائناً بين مسلكها وبين دعاويتها فى اتباع الإسلام ، والعمل بأحكامه .

ويهمنى فى هذه المباحث بصورة خاصة أن أتحدث عن التسلسل العلمى ، لجملة هذا المذهب . وأن أكشف عن الصور الرائعة ، من السيرة الرشيدة ، التى كان يسلكها أتباعه فى مختلف العصور والأزمنة .

وفى أحوال الظهور والكتمان وما بينهما . وعن الاستمسك المتين بالإسلام وأحكام الإسلام ، رغم تراكم الفتن ، وتزاحم الحن ، واضطراب الأمن .

وعن حقيقة الاعتصام بالله واحتقار المخلوق مهما بلغ من القوة والبطش والظفر .

وعن الإعراض عن زخارف الدنيا ، رغبة فيما عند الله .

وأن أعرض على القارىء الكريم : حياة حافلة بما يدعو إليه الإيمان بالله .

من مثل ، وأخلاق ، وأعمال ، مخافة لله وفي الله ، لا حساب فيها لمخلوق ،
وجهاد لله ، وفي سبيل الله ، لا ذكر لها في الدنيا .

وعمل صالح مستمر للبناء الذي يشيده الإسلام ، ويرفع قواعده الكتاب
الكريم ، ويحافظ عليه محمد صلى الله عليه وسلم .

وسوف يلحظ القارئ الكريم هذه الحياة الحافلة بالخير ، والاهتداء ،
والسيرة الرشيدة والعمل الصالح في التراجم القصيرة التي أعرضها في الصفحات
الآتية .

جابر بن زيد^(١)

ولد أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي^(٢) سنة ٢١ هـجرة ، وتوفي سنة ٩٦ منها . وهو وإن كان عمانياً إلا أنه عاش في العراق ، فقد أمضى أكثر عمره المبارك ، في البصرة ، إحدى عواصم العراق العلمية في ذلك الحين .

عاش في البصرة — كما عاش أكثر زملائه من كبار التابعين — ينشر العلم في المساجد والجامع ، ويدث الخلق الحميد بين الناس ، ويدعو إلى التمسك المتين بالدين القويم ، والحفاظة على أصوله وفروعه . ويفتي في المشاكل التي تعرض للناس ، حتى قال إياس بن معاوية : « لقد رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد » .

وقال ترجمان القرآن — عبد الله بن العباس رضي الله عنه : « عجباً لأهل العراق ، كيف يحتاجون إلينا وفيهم جابر بن زيد » ولما توفي قال أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض » ودخل ثابت البناني على جابر ابن زيد وقد حضرته الوفاة فقال له : هل تشتهي شيئاً ؟ قال : أشتهى أن ألقى الحسن البصري ، وكان الحسن مستخفياً خرقاً من طغيان الأمويين وعماهم ، فذهب ثابت إلى الحسن وكان يعرف مقره وجاء به إلى صديقه الحميم المحتضر ، وتحدث التابعي المسلم الكبير ،

(١) راجع السير لأشماخي . وشرح مقدمة التوحيد للقطب

(٢) اختلفت الروايات في تاريخ مولد جابر وتاريخ وفاته ما بين ١٨ إلى ٩٦ ،

و ٢٣ إلى ٩٣ .

إلى التابعى المسلم الكبير ، وتواصيا وها يتأهبان إلى فراق فى الدنيا طويل ،
ويأملان لقاء فى الآخرة سعيد .

وتحدث الحسن عن زميله ورفيقه وصديقه الذى رحل عن الدنيا واستقبل
الآخرة فقال : « هذا والله الفقيه العالم » .

وقد شهد له بالعلم والفقه والدين وسماحة الخلق غير هؤلاء كثير .. كثير من
الصحابة وكثير من التابعين وكثير من تابع التابعين . غير أننى أرى شهادة
عبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ، وعائشة أم المؤمنين وهم من أخص أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحقائق الدين وأسراره ، وأعلمهم بمعانى
القرآن الكريم ومواقع السنة ، وأكثرهم إلماماً بسيرته العطرة وهدية القويم ،
يضاف إليها شهادة الحسن البصرى سيد التابعين وأقربهم من جابر ، وأعرفهم به

إن هذه الشهادة التى بمطيتها أخص أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ويختتمها
سيد التابعين : تعتبر أعظم إجازة معتمدة تعطى عن درجة علمية فى ذلك الحين .

أخذ جابر العلم عن عبد الله بن عباس ، وعائشة أم المؤمنين ، وأنس بن مالك ،
وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من الصحابة .

قال جابر : أدركت سبعين بديراً فحوت ما عندهم من العلم إلا البحر ،
وكان يقصد بالبحر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . وإذا استطاع هذا الإمام
العظيم بما أوتي من جهد وذكاء وصبر أن يجمع علم سبعين بديراً ، فإنه ليس غريباً
أن يكون جمع من علم بقية الصحابة رضوان الله عليهم ما لا يبلغه الحصر ،
لكثرة عددهم ، وسهولة الأخذ عنهم .

وقد تلقى عنه خلقٌ كثير، منهم قتادة شيخ البخارى وأيوب، وابن دينار

وضمام بن السائب ، وحيان الأعرج ، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة . . . عاش جابر كما عاش غيره من كبار التابعين ، يجاهد لإحياء سننه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالقول والعمل ، ويدعو سراً وعلناً إلى أن الأمة الإسلامية ، يجب أن تحافظ على شريعة الله لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وكان يندد في دروسه ومجتمعاته ، بأولئك الذين انحرفوا عن دين الله ، فحكوا أهواءهم ، وأرضوا شهواتهم ، واتبعوا سبيل الشيطان ، وكان يبارك الثورة التي تطيح بالظلم ، وتنزع الحكم من أيدي الخونة ، لتضعه في أيدي أمينة ، حريصة على قداسة أحكام الله .

وكان الإباضية يصدرون عن رأيه في جميع أمورهم ، كما كان يصدر عنه كثير من غيرهم من المسلمين ، وليس جابر هو التابعي الوحيد الذي كان هذا رأى أكثر علماء الصحابة والتابعين في ذلك الحين .

ولذلك فقد كان طغيان الأمويين وعمالهم يلاحق أولئك العلماء الدعاة في كل مكان ، وكثيراً ما يفر أولئك العلماء الهداة فيستخفون عن الظلم ويفرون بدينهم عن الجبروب . وقد يلاحق بعضهم كثير من الأذى ، فيتحمله صابراً في سبيل الله .

وكما كان جابر بطلاً من أبطال الإسلام — يحرص على تعريف المسلمين بدينهم ، وبالعزة والكرامة التي يريدتها الله لهم ، ويكافح في صبر وعزيمة ، طغيان الظالمين ، وأضاليل المبتدعين — كان بطلاً في ترويض نفسه ، وحملها على سلوك الصراط السوي ، لا تفره شهرة العلم ، ولا تخدعه ثقة الناس به ، ولا تزدهيه نشوة الفوز في الانتصار على الخصوم .

رأى يوماً أحد طلابه يكتب شيئاً أثناء الدرس فنهاء أن يكتب شيئاً غير آية محكمة ، أو سنة متبعة ، أما رأيه فلا عبرة به ، لأنه قد يجد في المساء

حجة أقوى من التي يستند إليها في الصباح ، فيرجع عنه إلى ما ثبت بالدليل الأقوى ، ويذهب الطالب بما كتب ينشر الباطل في الناس .

كان للحجاج كاتب يدعى يزيد بن مسلم . وكان يحب جابراً كل الحب ، ويعجب به كل الإعجاب ، وأخذت ظروف الحياة العادية جابراً ، إلى زيارة هذا الكاتب المعجب ، وكأن الكاتب أراد أن يخدم كلا من رئيسه وصديقه ، فهاهما فرصة لقاء دون أن يشعرهما . واستمع الحجاج إلى الإمام العظيم ، فأعجب بعلمه وخلقه ، فعرض عليه القضاء قائلاً له : « لا ينبغي أن تؤثر بك أحداً ، نجملك قاضياً للمسلمين » وكانت هذه هي الفرصة التي يرمى إليها الكاتب الصديق ، ولكن جابراً لم يكن طالب دنيا . فقال : « أنا أضعف عن ذلك » قال الحجاج ، وما بلغ من ضعفك ؟

قال : يقع بين المرأة وخادمها شر ، فما أحسن أن أصلح بينهما . فقال الحجاج : إن هذا هو الضعف ..

وهكذا تخلص الإمام الأكبر من هذا العرض الكريم الذي كان حرياً أن تطير له نفس غيره فرحاً ومسرة .

ويظهر أن الكاتب الصديق لم يفهم مقصد الإمام من هذا التخلص ، وكان يريد أن يستغل هذه الفرصة لفائدة الإمام ، وأن يخدمه خدمة دائمة ، ولذلك قال للحجاج ؛ « ههنا خصلة تخف عن الشيخ وفيها عون المسلمين ، تجعله في أعوان صاحب الديوان بالبصرة ، فوافق الحجاج على الاقتراح ، ولكن العالم الزاهد لم يوافق فقال ليزيد : ما صنعت شيئاً ، أتراني أكون عوناً لصاحب الديوان ؟ .

وهكذا لم يقبل الإمام العرض الثانى الذى تقدم به هذا المعجب المحب ، وتنزه أن يشتغل فى وظائف حكومة ظالمة ، وهل يصح أن يُعين جابر أولئك الظلمة ، وهو يندد كل يوم بأعمالهم ، ويطالبهم بأداء الحقوق إلى أهلها ، وتسليم الأموال والعطايا إلى أصحابها ، وإسناد الوظائف إلى الأمناء الحراس الذين يتقون الله ويخافون حسابيه .

وعندما أراد الرجوع من هذه الزيارة ، وتهيأ للسفر أمر يزيد غلامه أن يسرجوا البرذون فاستحى الإمام من ربه أن يركب مركبا اختاره الظالمون المرفهون ، واختص به الجبايرة المترفون ، فاستمعى صاحبه منه ، فاحضرت له بغلة فقبل وركبها ، وهو يعلم أن ركوب البغلة أدنى إلى الخشونة وأبعد من الراحة ، وأنفى للكبر ، وأقرب من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان سيد الخلق يركب « دلدا » الشهداء .

وبالغ يزيد فى إكرام الإمام . على الطريقة التى يعرفها الحكام المترفون المسرفون فى الدول الظالمة ، فأمر جواربه أن يدهن رأس جابر ولحيته بالغالية فنزل الإمام الكبير إلى دجلة وغسل رأسه ولحيته . ودلكهما ، دلكا شديداً ، وهو يقول : « اللهم لا تجعل حظى منك منزلى عند هؤلاء القوم » .

اعتاد جابر أن يحج كل سنة . وفى إحدى هذه السنوات بحث إليه عامل البصرة أن لا تبرح العام ، فإن الناس يحتاجون إليك ، يعنى فى التدريس والفتوى ، ولكن جابراً أصر على موقفه ، وأبلغ العامل أنه لن يترك عملاً لله من أجل أوامر بشر ، ولو كان هذا البشر عاملاً من عمال الدولة الأموية ، فأخذه العامل وسجنه .

وعندما أهل هلال ذى الحجة ، جاء الناس إلى العامل فقالوا : أصلح الله

الأمير قد أهل هلال ذى الحجة ولم يبق من الوقت ما يكفي للسفر بين البصرة ومكة . فأطلق الأمير مراحه . ولما وصل جابر إلى منزله بدأ يشد الرحلة على ناقة له . كان بعدها للحج .

ويقول : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » ثم سأل آمنة هل عندك شيء ؟ فقالت له نعم وأحضرت الزاد في جرابين . . .

وطلب منها ألا تنخب أحداً بمسيره في ذلك اليوم ، وانتهى إلى عرفات والناس بالوقوف ، فضربت الناقة الأرض بجرانها ، وتجاجات ، فقال الناس : ذكها ! ذكها ! . . .

فقال « حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة في البصرة ، وأدركت الناس في محرمات ، ألا أن يفعل بها هذا » . وسلمت الناقة وكان قد سافر عليها أربعاً وعشرين مرة بين حجة وعمره .

وإنه إن ناالة القول أن أتحدث عن دين جابر وخلقه ، وخوفه لربه ، واتباعه للسنن ، وابتعاده عن البدعة ، وفهمه العميق لأسرار الشريعة . ومحاسبته لنفسه ، وحملها على ما تكره النفس البشرية إذا كان في ذلك، قربة إلى الله عز وجل .

اشتهر عن جابر أنه لا يماكس في ثلاث : في كراء إلى مكة ، وفي عبد يشتري ليعتق ، وفي شاة للتضحية ، وكان يقول : « لا نماكس في شيء نتقرب به إلى الله تعالى » . وإذا وقع في يديه ستوق كسره ورمى به لثلا يغربه مسلم — والستوق الدرهم المغشوش — .

امتلاً قلبه بالإيمان بالله ، وفاض على لسانه دعوة مخلصه إلى دين الله ، وعلى جوارحه عملاً صالحاً بما يرضى الله . قالت هند بنت الملهب : « كان جابر ابن زين أشد الناس انقطاعاً إلى والي أمي ، وكان لا يعلم شيئاً يقربني إلى الله

عز وجل إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدن عنه إلا نهاني عنه ، وكان ليأمرني أين أضع الخمار » . وتضع يدها على الجبهة لتبين موضع الخمار من جبهة المرأة المسلمة .

ولو التمسث مثل هذه الشهادات عن علم جابر وأخلاقه أو دينه ، أو ذكائه وعبقريته لكثرت هذه الشهادات وأخذت منا وقتاً ومكاناً . وحسبك أن تعلم أنه رحمه الله أعلم من أن يبقى من كتاب الله وسنة ورسوله وهدى محمد حنى في سلوكه الخاص شىء لا يعرفه . وإنه أذكرى من أن تنطلي عليه زخرفة بدعة ظاهرة أو خفية ، وأخشى لله من أن يرى منكراً ويسكت عنه ، وأشجع من أن يؤيد عمل الظالمين ، ويرضى عن سلوك الطاغين ، وأحرص على أداء رسالة الإسلام من أن يكمل من التعليم في كل مكان .

رأى أحد الحجة يصلى فوق الكعبة فنادى : يا من يصلى فوق الكعبة لا قبلة لك ! . . . وكان ابن عباس فى ناحية من المسجد فسمعه فقال : إن كان جابر بن زيد فى شىء من البلد فهذا القول منه . والأستاذ العبقرى يعرف من من تلاميذه يمتاز بصحة الفهم ولحمة العبقرية ودقة الملاحظة والاهتمام بأمر المسلمين ، والعمل على إرشادهم ، وتوجيههم إلى الطريق الأفوم .

وبعد هذا كله فإن جابراً يعتبر من أوائل المؤلفين فى الإسلام ، إذا لم يكن أولهم على الإطلاق ، وقد كان لكتابه الضخم القيم ، المسمى « ديوان جابر » رنة فى صدر الإسلام ، وكان موضع تنافس بين دور الكتب الإسلامية ، واستطاعت مكتبة بغداد أن تتحصل عليه ، وأن تبخل به عن غيرها من المكتبات ، ولم تنقل منه إلا نسخة واحدة كافح أحد عباقرة جبل نفوسة للحصول عليها فى قصة طويلة سوف ترد إن شاء الله فى حلقة آتية .

كان لهذا الكتاب قيمة كبرى لما فيه من علم وهدى ، ولقربه من عصر النبوة ، ولأخذ مؤلفه عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانت له قيمة أخرى أثرية وهي أنه أول كتاب ضخم ألف في الإسلام .

وإنه لمن المؤسف أن يضيع هذا التراث العظيم من مكتبة بغداد عندما أحرقت تلك المكتبة العظيمة ، وضاعت منها آلاف النفائس ، كما أنه من المؤلم المر أن تضيع النسخة التي وصلت إلى ليبيا فيما ضاع من التراث الإسلامي العظيم بسبب الجهل والحقد وطلب الرفعة عند الناس . وایس أعظم محنة من ضباع التراث العلى والخلقى والدينى لأمة مسلمة لا يستقيم حاضرها إلا على القواعد المتينة التى انبنى عليها ماضيها ، وان يصاح حاضرها هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

لقد حاولت فى هذا الفصل أن أترجم للإمام العظيم جابر بن زيد ، ولكننى أعترف أننى أخفقت ولم أستطع أن أصل إلى ما قدرته فى نفسى . وإلى ما يتطلبه الموضوع منى ، وان يفوتنى فى آخر هذا الفصل أن أقتبس من العلامة قاسم ابن سعيد الشماخى ما يأتى : (١)

وأما تسمية مذهبنا بالإباضية . لـ يكون عبد الله بن إباض^(٢) رضى الله عنه كن المجاهد علنا ، المناضل علنا . فى سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول ، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع ، من الزور والافتراء فى شريعة ربنا وكان شديداً فى الله تعالى ، وله مناظرات مع أهل التنعاس والتفاسف ، كان الحججة الدامغة . التى يخنس أمامها كل ثرثار ، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم

(١) القول المتين .

(٢) سبأى الحديث عن عبد الله بن إباض فى حلقة : • الإباضية فى الجزيرة •

نفس كل جائر جبار ، تغلب على المسلمين أصحابه الذين يقولون بقوله الإباضية ،
وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى ، وإنما كان الامام القائد ، الوسيطة الراشد
أس المذهب وحاميه ، مرجع الفضل في تدوينه وتشيد مبانيه ، إنما كان جابر
ابن زيد رضى الله عنه — وعبد الله بن إباح كان صنوه وتلوه ، وكان لا يصدر
في النوازل إلا عن رأيه ونظره ، وبعد وفاة جابر بن زيد ، ظهر عبد الله بن إباح
بأجلى مظاهر الغيرة الدينية ، ولقن أصحابه مبدأ الاقدام في تقرير الحق ، وقع
أهل الجور والظلم ، المنحرفين عن جادة الصواب ، حتى ظهرت هذه الفرقة
الناجية ، المحقة الصادقة ، في أدوارها الوجودية في حالتى السكتان والظهور ،
مرعية بعين عناية الله تعالى .

لا يقدر عليه أحد بسوء ، ظاهرى الكرامات ، أعداء المناكر والجرائم ،
أشداء على الظلم والظالمين ، والنفاق والمنافقين . »

أبو عبيدة مسلم^(١)

أخذ العلم وأصول المذهب عن جابر بن زيد جماعات كثيرة انتشروا في المشرق والمغرب .

وكان أعظمهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة . الذي أصبح مرجع الإباضية دون خلاف بعد جابر بن زيد ، رغم أن له زملاء لا يقلون عنه علما بدين الله وعملًا به .

هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم ، اشتهر بلقب القفاف ، لأنه كان يشتغل بصنع القفاف ، وهي حرفة حرة ترفيعة ، استطاع أن يرتزق منها هو وطلابه رزقاً شريفاً حلالاً ، بعرق الجبين وكد اليمين .

تولى التدريس بعد الإمام جابر ، فأخذ عنه العلم خلق كثير ، رغم ما ابتلى به من مضايقة الطغين . وتشديد الرقابة عليه ، ومنعه من نشر العلم ، وبث الروح المنحرة التي ترضى بالضميم ، ولا تسكت عن الهوان .

وقد اضطر تحت ضغط الظالمين أن يقوم بالتعليم مستتراً ، وأن يخفي مدرسته القيمة عن أنظار الحجاج ، وأعوان الحجاج ، الحجاج الطاغية الذي لم يكذب مسلم من جبروته وطغيانه ، مؤمن بربه مخلص ، مع زميله وصديقه ضمام ، واستشار في أمرهما مجوسيا ، ليدله على نوع من الأكل يتعذب به الآكل ولا يفضي به إلى الموت فأشار عليه باطعامهما الزيت والكراث ، فكان ذلك طعامهما إلى أن مات الحجاج فاطلق سراهما .

(١) راجع السير للشماخي وشرح . مقدمة التوحيد لقطب الأئمة .

وربما ضاق ضمام بهذا السجن وهذا العذاب فيقول له أبو عبيدة في صبر
المؤمن الواصل في الله ، هل من تضيق ؟

خرج الإمام أبو عبيدة من سجن الحجاج فواصل رسالته ، في الدعوة
إلى الله ، والتمسك بدينه ، والعمل بشريعته ، وكان حر الفكرة ، ينشر المبادئ
الإسلامية الصحيحة ، في كرامة المسلم . وعدم قبوله للامتهان ، ومطالبة ذوي
السلطان بالاستقامة ؛ الاستقامة في الدين ، والاستقامة في الخلق ، والاستقامة
في العمل ، والاستقامة في الحكم .

كان يدعو إلى مطالبة ذوي السلطة بالتزام السنة ، واتباع سيرة السلف
الصالحين ، وإقامة العدل بين الناس . وتنفيذ أحكام الله ، كما جاء بها كتاب
الله ، وهذه الدعوة هي أكره ما يكره الظلمة المستبدون ، في كل عصر ، وفي كل
مصر . ولذلك فقد بذلوا ما لديهم من قوة ، واستعملوا كل وسيلة لكي يحولوا
دون هذه الدعوة ، ويمنعوها من البلوغ إلى الناس على حقيقتها وصحتها ووضوحها
لكي تبقى الأمة وادعة مستسلمة ، ويستمر الشعب صابراً منتظراً . ويسود الجميع
القناعة والصبر .

ولكن هل يستطيع الظلم مهما كان قوياً ، والظلمانيان مهما كانا عنيفاً ،
والجبروت مهما استكبر واستعلن ، هل يستطيع كل ذلك . وأضعاف كل ذلك :
أن يسكت الحق ، وأن يطمس نور الحقيقة . وأن يطول استعباده لشعوب تؤمن
بأن دين الله يدعوها إلى التحرر من عبودية البشر ، وأن كتاب الله يحرم عليها
الانحذال والاستكانة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أمته : أن أفضل
الجهاد كلمة حق عند إمام جائر يقتل بها صاحبها .

فعل الحجاج ، وأعوان الحجاج ، ورؤساء الحجاج ، كل ما يستطيعون ، ليخفتوا صوت الحق ، ويضطهدوا دعاة الكرامة ، وحمة الشريعة ، فسجنوا وعذبوا وقتلوا ، وملأوا الدنيا بالرهبة والخوف ، فعلوا كل ذلك وأكثر من ذلك ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يزيدوا الثورة اشتعالا ، وأن يعجلوا بنهاية سلطانهم ، وذهب الحجاج ، وذهبت الدولة التي كان يعبدها من دون الله ، وذهب ما أعد لمحاربة المؤمنين من قوة . وتوفى إلى رحمة الله المؤمنين المخلصون . من التابعين ، ولحق بربه جابر ، والحسن ، وضمام ، وأبو عبيدة ، وآلاف غيرهم ممن وصلت إليهم يد الحجاج وزملائه بالأذى الكثير ، أو القليل ، ولكن شتان بين ما سجله التاريخ لأولئك وهؤلاء ، أما ما عند ربك نخير وأبقى .

استطاع الحجاج بما عنده من إمكانيات ، وما أتبح له من قوى أن يزيد قليلا في المال الحرام الذي تمتع به المترفون من بنى أمية ، وأن يمنحهم أمنا أكثر في مجالس العربدة والسكر ، وأن يهيب لهم التفرغ للشراب والتمار والفجور .

واستطاع أولئك المضطهدون المذبذبون ، أن يمدوا الأمة الإسلامية بدين الله ، وأن يوصلوا إليهم رسالة محمد صافية خالصة ، وأن يغمروا قلوبهم بالإيمان بالله وحده . وأن يعرفوهم أن العبودية لا تكون إلا لله ، وأنه يتساوى في ذلك جميع المخلوقات .

واستطاع أولئك المضطهدون المذبذبون أن يفهموا الأمة أن الخلفاء والعمال والموظفين في الدولة ، والقائمين بالحكم في جميع المرافق والأعمال ؛ أن هؤلاء ليسوا غير حملة أمانه لمدة مؤقتة ، وأجراء للقيام بمهام الدولة ، نظير قوت وكسوة لا إسراف فيها ولا تبذير .

فإذا حفظوا هذه الأمانة ، ورعوا مصالح الأمة ، وأدوها إلى أهلها ، كما

يقتضى الحق والمعدل فليهم من الأمة الأجر الذى أسلفنا ، أما جزاء إخلاصهم وأمانتهم وجهدهم وصدقهم فعلى الله ، وعند ربك الجزاء الأوفى .

أما إذا أنسوا من أنفسهم عجزاً عن تحمل هذه الأمانة ، وخافوا عاقبة الضياع ، فليردوا الأمانة إلى أهلها ، ولينسحبوا مشكورين سالمين .

أما إذا غرتهم أنفسهم ، وغلب الشيطان على ضمائرهم ، وأرادوا أن يتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، وأن يستأثروا بأكثر مما أعطاهم الحق ، فإن الأمة يجب أن تقف في وجوههم ، وأن تردم عن مقاصدهم ، وأن تطالبهم بالتزام الحدود ، واتباع السبيل ، فإن عرفوا الحق ، ورجعوا إليه ، غفر الله لهم ، وقبلت الأمة منهم ذلك ، واشتروا في آداء واجبهم والقيام بأعمالهم ، والحفاظة على أمانة الله التى وضعت في أعناقهم ، أما إذا نفخ الشيطان في آنافهم ، واستحوذ البطر في نفوسهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واستمروا شهوة الحكم ، فإنه يجب أن تقف الأمة لهم بالمرصاد ، وأن تحاسبهم على أعمالهم ، وأن تبعدهم عن مناصبهم ولو بقتالهم ، فإن قتل المفسدين أهون عند الله من أفساد المصلحين ، وظلم المؤمنين والعبث بحقوق المسلمين .

هذه الدعوة التى كان يدعو إليها المؤمنون من السلف الصالح ، وعلى هذه الدعوة كان الظالمون من ذوى السلطة يطاردونهم شر مطاردة ، ليخفثوا صوت الحق .

وكان أولئك الأئمة العظام لا ينفكون — مع دعوة التحرر هذه — عن نشر العلم ، وبث الخلق الحميد ، فكانوا يدأبون على تفقيه عباد الله في دين الله ، وتفسير ما خفى عليهم من كتاب الله أو سنة رسول الله .

ولما كانت الرقابة الشديدة على أبي عبيدة لا تنفك عن التجسس عنه ، وكانت أوامر الظلمة تمنعه من التدريس ، فقد أخذ مدرسته في سرداب خفي . طویل ووضع على مدخله سلاسل من الحديد ، فإذا سمع صاصلتها هو وطلابه علموا أن غريباً يريد الدخول إليهم ، فأوقفوا الدرس ، واشتغلوا بصنع القفاف ، فلا يشته الزائر في أمرهم ، فإذا غادرهم وأمنوا عيون الظلمة ، رجعوا إلى ما كانوا عليه .

وانتقلوا من إدارة معمل لإنتاج القفاف إلى إدارة معمل لإنتاج القلوب والعقول والعزائم .

ومع هذه الرقابة الشديدة ، والضغط المستمر ، والعذاب المر ، مع كل ذلك استطاع ذلك الإمام العظيم أن يكون مدرسة إسلامية ، تحمل نور الهداية الحمدية إلى جميع الإفاق . فقد تنفث فيها عدد لا يبلغه الحصر من المسلمين ، ويكفي أنها خرجت حملة العلم إلى المشرق ، وحملة العلم إلى المغرب .

وإلى هذا الكفاح الطويل المستمر ضد الظلم والظالمين الذي يقوم به هذا الإمام ، فإنه كان يقوم بكفاح عقلي ديني آخر طويل مستمر ، كفاح البدعة فيما تزخره العقول المنحرفة ، والبصائر الحولاء ، من القدرية ، والجبرة ، والخوارج تلك العقول التي ابتليت بحب الجدل في ذلك الحين ، وترك العمل .

كان أبو عبيدة — إلى دينه القويم ، وخلفه الكريم ، وعلمه الواسع ، وثباته على المبدأ ، واستمساكه بالحق ، وجفوته للعصاة ، وصموده أمام النوازل جم التواضع ، لين العريكة ، سهل الخلق ، يعترف بقله الاطلاع ، وقصور الباع .

لقد كان مسلماً في دينه ، وفي خلقه ، وفي عمله ، وفي علمه ، وكان داعية من دعاة الإسلام ، لا يفتنه زخرف الحياة ، ولا تغره زينة الدنيا ، ولا يجد الباطل عنده ليأخذ أو هوادة .

إنه خلق للكفاح : كفاح الباطل في جميع صورته وأشكاله ، كفاح الباطل الذي يأتي عن طريق القوة من ذوى السلطة ، وكفاح الباطل الذي يأتي عن طريق العقل في منطق البدعة ، وكفاح الباطل الذي يأتي عن طريق العلم في أغفال بعض تراث الأمة ، وكفاح الباطل الذي يأتي عن طريق الجهل في التقليد الأعمى ، وكفاح الباطل الذي يأتي عن طريق الصبر في صورة الوداعة لاحتمال المذلة ، وكفاح الباطل الذي يأتي عن طريق الجزع في صورة الفرار من الصمود لاحتمال النازلة ودرء المصيبة .

وهو حين يكافح هذا الباطل في جميع صورته وأشكاله يعرف أن حياة فرد أقصر من أن تقوم بهذه الرسالة الكريمة ، ولذلك عمل على تكوين جيل من الشباب الواعى المنقف ، العارف بحقيقة الرسالة الإسلامية ، المدرك لأسرار شريعته وأن أول وصف يجب أن يكون عليه المؤمن بالله ، أن يكون معتزاً بالله ، ذليلاً على المؤمنين ، عزيزاً على الكافرين ، صبوراً على الحزن في أعلاء كلمة الله .

قال العلامة الشماخي عند تحدث عن أبي عبيدة :

« تعلم العلوم وعلمها ، ورتب روايات الحديث وأحكمها ، وهو الذي يشار إليه بالأصابع بين أقرانه ، ويزدحم لاستماع ما يقرع الأسماع من زواجر وعظة ، وقد اعترف مع ذلك بضيق الباع ، مع ما عليه من الاتساع . »

ومع ما لهذه الشهادة من قيمة ، فإن الحركة العلمية التي قام بها الإمام أعظم من أن تصورها كلمات في سطور ، ويكفي أنه كان مركز إشعاع في البصرة ، ومن ذلك السرداب الخفي الخفي الذي تصلصل السلاسل على بابه ، وتتكدس فيه الثقاف مع الأفلام والأوراق ، انطلقت الدعوة الحرة الكريمة ، للحفاظ على تراث محمد كما جاء به محمد . فبلغت هذه الإنطلاقة أقصى المشرق ، وأقصى

المغرب ، وأقصى الشمال ، وأقصى الجنوب ، ولم تزل منذ ذلك الحين إلى اليوم
وهي تكافح من أجل هذه الرسالة الكريمة ، حتى استيقظ الغافلون ، وانتبه
النائمون الشاردون ، وبدأوا يراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى ربهم ، لينضموا
إلى بعضهم ، ويوحدوا صفوفهم ، ويحفظوا رسالة الله من الأخطار الجديدة ،
أخطار الزندقة والإلحاد ، وعبادة الناس ، الذين قدستهم الحضارة الكاذبة ،
والدعاية المفرضة ، التي ترمى إلى أبعاد هذا الدين القيم عن مجرى الحياة ، لأنها
تعرف أنه لا قرار لأحكام البشر مع أحكام الله ، ولا قيمة لشرائع الفلاسفة
مع شريعة الإسلام .

كلمة لا بد منها

قد يرى بعض القراء الكرام في هذا العمل الضئيل الذي قدمته المكتبة الإسلامية الفنية ، دعوة إلى مذهب معين ، أو دفاعاً حاراً عنه كما قال بعض الأصدقاء ، وأما أبادر فأقول : أما حرارة الدفاع فإنني أدافع بما أملك من حرارة عما اعتقدته حقاً ، وذلك من أجل الحق ، لا من أجل المذهب ، لأن الدفاع عن الحق سواء اصطبغ بنظرة مذهبية ، أو تجرد عنها ، هو الواجب الذي يتحتم القيام به على كل مسلم . .

وأما المذاهب ، فإن المذاهب الإسلامية المختلفة في نظري ما هي إلا جداول صغيرة تنفرع عن النبع الصافي الذي أراد خالق الإنسان أن تشرب البشرية منه ، وقد انبثق هذا النبع الفياض في زمن غلب فيه الظمأ العقلي والوجداني على حياة الإنسان ، فاغترف منه الناس في ذلك الحين ما أذهب ظمأهم ، وأروى غلتهم ، وبعث الانتعاش والحياة فيهم

وجاء ناس من بعدهم ، فشق كل واحد منهم لنفسه ترعة ، وهو يريد الخير لنفسه وأهله ، وعلى مقدار طهارة مجرى الترعة ، أو زكاء مسيلها يصل الماء إلى طالبيه . .

وقد وقف أصحاب كل ترعة يدعون أن مجرى ترعتهم أنظف وأطهر ، وأن الناس يجب أن يشربوا من هذه الترعة إذا أرادوا الخير لأنفسهم لأنها ترعة يتصل مجراها بالنبع الأصلي فعلاً ، وقد ينفل كثير عن هؤلاء الدعاة

عما يقع في هذه الترع الطويلة الملتوية التي تسيل متفرعة عن النبع ، وأن تغييراً كثيراً يصادفها أثناء الجريان في هذه الجداول التي تمخرها معاول الإنسان .

والأمة المسلمة اليوم بجميع فرقها وطوائفها أحوج منها في أى زمن مضى ، إلى الرجوع إلى الاعتراف من أصل النبع الذي لا يلحقه تغيير ، ولا يطرأ عليه تبديل ، تاركة هذه الجداول الكثيرة التي شقها الناس غير المعصومين .

إن الدعوة إلى الاستمسك بكتاب الله ، والاعتصام بهدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عما سوى ذلك من المذاهب والنزعات ، هي الدعوة التي يجب أن يدعو إليها كل مسلم يحب الخير لنفسه ، ويجب الخير لقومه ، ويجب الخير لأمته ، ويجب الخير للإنسانية .

وإذا دعوت إلى الاعتصام بدين الله ، والرجوع إلى حكمه ، في قضايا الفرد ، وقضايا المجتمع ، وقضايا الإنسانية جمعاء ، فإننى أدعو إلى ذلك وأنا مؤمن أنه ما من طريق تسعد به البشرية غير هذا الطريق .

ولست حين أدعو إلى الاعتصام بدين الله غافلاً عن أننى أعيش في عصر مفتون بحضارة يزعم الإنسان أنه خالقها ، وأنه قد بعد عن الله بـكـره وعقله وعمله ، وحاول أن يجمع عن روابط الخلق بالخالق ، فيقطع صلته بربه ، ويبنى سعادته بتدبيره وإعداده .

وايست هذه هي المرأة الأولى التي حاول فيها الإنسان الضال أن يجمع عن روابط الخلق بالخالق ، ويقطع صلته بالله ، ويستغنى عنه ، بل لقد وقف هذه المواقف منذ أزمنة طويلة ، فتجداه الخالق الأعظم أن يفعل : « يا معشر

الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا
لا تنفذون الا بسلطان^(١) .

ولم يستطع الإنسان أن ينفذ منها لأنه لا يملك السلطان .

وسواء طالت هذه التجربة من الإنسان أوقصرت ، فإن الإنسان سوف
يقتنع بأنه أعجز من أن يستغنى عن الله ، ويجمع عن حكمه ، وينفذ من أقطار
السموات والأرض ، ولسوف يدرك في نهاية المطاف أنه لا يمكن أن يسد
إلا إذا رجع إلى رحاب الله ، وتشمله رعايته وعنايته وتسديده .

كلمة الختام

إننى أنوجه إليه سبحانه وتعالى بالشكر على نعمه الظاهرة والخفية ، وأحمده جل وعلا أن يسرلى هذا العمل الضئيل لخدمة الدين والأمة ، وأسأله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأضرع إليه سبحانه أن يسرلى إنجاز بقية هذه الحائقات ، وأن يتولى عملى بالتوفيق ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

لقد رأيت أن أقف بهذه الحلقة الأولى إلى هذا الحد ، وأنا حينما أراجعها ألمس فيها كثيراً من الإخلال ، وعدم الاستيفاء بالمقاصد التى رميث إليها ، وأعتقد أن هذه الفصول فى مجموعها ، لم تبلغ المقصود منها فى الكشف عن حقائق منشأ الإباضية ، كما أن ترجمة كل من الإمامين العظميين لم أباغ بها منزلتهما فى نفسى ، وعذرى فى كل ذلك ، قلة المصادر ، وبعدى عن مجال المكتبات العامة والخاصة من جهة ، وضخامة العمل الذى قصدت إليه من جهة أخرى .

وعلى أولئك الطامحين إلى مزيد من المعرفة ، الذين لا يقنعهم هذا العمل الطفيف ، ولا يروى غلتهم هذا الوشل الضعيف ، أن يسرحوا أنظارهم بين ما كتبه عباقرة المؤرخين ، وعباقرة علماء الإسلام فى مختلف العصور ، فإنهم سوف يجدون فى تلك الجنان الفناء ، متع العقل والفكر والروح .

ولا يسمنى وأنا أختتم هذه الفصول إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع الذين أمدونى بالمساعدة فى هذه الأبحاث المتواضعة ، وأخص من بينهم الصديق الوفى الأستاذ أحمد على عسكر على تيسيره لى هذا العمل ، مقدراً ما بدله من جهود جبارة ، وسهره من ليال طوال .

فهرس الاعلام

(١)

الأشعث بن قيس ٣٠
الإمام محمد عبده ٤١، ٤٢، ٤٧،
إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ١٠٦
أبو بكر الصديق ٢١، ٢٩، ٣٠، ٥٦
أبو خاتم يعقوب المزوزي ١٣٩
أبو الخطاب عبد الأعلى ٧٠، ١٣٨
أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاني ١٠٧
أبو زكرياء بن بكر ١٠٧
أبو سعيد الخدري ١٩
أبو العباس الشماخي ٢٣، ٣٠
أبو عبد الله محمد بن جلداسن ١٠٣
أبو عبد الله بن بكر ١٠٧
أبو عبيدة سلم ١٩، ٦٨، ١٤٧، ١٥٥ - ١٥٩، ١٦٠
أبو عمار عبد الكافي ١٠١، ١٠٧
أبو هارون موسى ١٠٣
أبو يحيى الأرجاني ١٠٣
أبو يعقوب الوردجاني ٢٣، ٤٥
ابن حزم الأندلسي ٤٠، ١٣٥
أحمد أمين ٧٧
آمنة (زوج جابر بن زيد) ١٥٠
أنس بن مالك ٤٩، ٦١، ١٤٥، ١٤٦
لياس بن معاوية ١٤٥
أيوب السخيتاني ١٤٦

(ب)

بلال ١٢٤

(ث)

ثابت البناني ١٤٥

(ج)

جابر بن زيد ١٩، ٣٧، ٤٩، ٥٩، ٦١، ٦٢،
١٤٥، ٦٩، ٦٣ - ١٥١، ١٥٣، ١٥٦

(ح)

الحارث بن تليد ١٣٧
الحاكم: ١٢٧
الحجاج بن يوسف ٦٩، ١٤٨، ١٥٦، ١٥٧
حرقوس بن زهير السعدي ٢٥
الحسن البصري ٣٧، ٤٩، ١٣٦، ١٤٥،
١٤٦، ١٥٧
حسن البنا (الإمام) ١٥

(خ)

خالد اللواتي ٧٠

(ر)

الربيع بن حبيب ١٩

(ز)

الزاوي ٤٠، ١٦٠، ١٢٣، ١٣٥
الزبير بن العوام ٢٢، ٢٨، ٣٣

(س)

سمد بن أبي وقاص ٣٧
سعيد بن المسيب ٤٩
سلطان الفارس ١٢٤

(ش)

الشهرستاني ٥٥، ٥٩، ١٣٥
شكيب أرسلان ١٣٨

(ص)

صهيب الرومي ١٢٤

(ض)

ضمام بين السائب ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦

(ب)

(ط)

طلحة بن عبد الله ٢١، ٢٢، ٢٨، ٣٣

(ع)

عائشة (أم المؤمنين) ٢٢، ٢٥، ٤٩، ٦٠، ١٤٦

عبد الرحمن بن رستم ١٣٩

عبد الله بن حميد الدين السلمي ٧٢، ١٣٨

عبد الله بن العباس ٤٩، ٦٠، ١٤٥

١٥١، ١٤٦

عبد الله بن عمر ٣٧، ٤٩، ٦١، ٧٣

١٤٦، ٨٦

عبد الله بن الامطى ٦٩

عبد الله بن وهب الراسبي ٢٤، ٢٥، ٢٦

٣٧، ٣٥، ٣١، ٣٠

عبد الله بن يحيى الكندي ١٣٨

عبد الملك بن مروان ١٢٤، ١٣٥

عبد الوهاب الرستمى ٣٣، ١٣٩

عثمان بن عفان ٢١، ٢٢، ٢٧، ٢٩، ٣٥

العقبى ٧

عطاء بن أبي رباح ٤٩

علي بن أبي طالب ١٩، ١٧، ٣٠

٣٤، ٣٥، ٣٧، ٧٠، ١٣٦، ١٣٧

عمار بن ياسر ٦، ٢٥

عمر بن الخطاب ٢١، ٥٦، ٨٦، ١٢٦

عمرو بن عبد العاص ٢٣، ٢٤

(ق)

قطب الأئمة « محمد طفيش ٧، ٨٣

(م)

مالك بن أنس ٧٣، ١١٤، ١٣٥

محمد الفزالي ٦٤، ٨٧

المسعودى ١٣٦

معاذ بن جبل ٧٣، ٧٤، ١٣٥

معاوية بن أبي سفيان ٢٠، ٢٢، ٢٣

٢٤، ٢٥، ٢٨، ٣٣، ٣٧، ١٣٦

١٣٧

المنذرى ١٣٧

المهلب بن أبي صفرة ٢٧

(ن)

نافع بن الأزرق ٣٣

(هـ)

هارون الرشيد ١٢٤

هند بنت المهلب ١٥٠

(و)

واصل بن عطاء ٥٨، ١٣٦

(ي)

يزيد بن مسلم ٦٩، ١٤٨، ١٤٩

فهرس الموضوعات

٧٧ ...	الاسلام عقيدة وقول وعمل	٥ ...	مقدمة
٨٣ ...	الولاية والبراءة والوقوف	٩ ...	هذا الكتاب
٨٩ ...	كفر النعمة	١٣ ...	رجوع الى محجة الإسلام
٩٣ ...	مسالك الدين	١٧ ...	لماذا كتبت هذه الفصول
٩٧ ...	الغزابة	١٩ ...	معنى الحوارج
١١١ ...	صيانة لكرامة المرأة	٢٣ ...	الحوارج في نظر الاباضية
١١٥ ...	من أسرار الزكاة	٣٧ ...	توافق في رأى
١١٩ ...	عصية	٣٩ ...	ميزان الخطأ والصواب لفرق الاسلامية
١٢٥ ...	اعتصام الاباضية بالدين	٤١ ...	افتراق الأمة
١٣٤ ...	الاباضية في قيادة الأمة	٤٣ ...	الناجى والمهلك من الفرق
١٤٢ ...	كلمة قصيرة	٤٧ ...	تكون المذاهب الاسلامية
١٤٥ ...	جابر بن زيد	٥٣ ...	المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية
١٥٥ ...	أبو عبيدة مسلم	٥٥ ...	متى بدأت المذاهب الاسلامية
١٦٣ ...	كلمة لا بد منها	٥٩ ...	نشأة المذهب الإباضى
١٦٧ ...	كلمة الختام	٦٧ ...	موقف الاباضية في أسواق الجدل
... ..	الفهرس	٧١ ...	الاجتهاد